الرجل والمرأة والجنون

إسماعيل ولي الدين

مكتبة غريب

- الرجل والمرأة والجنون
- إمرأة تلبس الحداد
- أبناء الليل

الرجل والمرأة والجنون

إسماعيل ولي الدين

الناشر
مكتبة غريب
٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

(١)

انتهت مدة خدمتـه فى الجيش « إبراهيم العظم » بعد معاهدة السلام التى تنص على تخفيض القوات إلى النصف وخاصة الضباط العظام .

خرج لا يلوى على شىء فقد فسد كل شىء حتى فى الثكنات . الأمـور الهنـدسية الآن يؤديها ضباط احتياط صغار لا يفهمون شيئا ولا يقـدرون مسئولية ما . . يتركون الثكنات بعد سنة أو سنتين . . وفى الأمور الهندسية ـ لا يتكون المهندس الكفء إلا بعد عدة سنوات من العمل الشاق .

وخـرج إبـراهيم العـظم إلى الفـراغ القـاتـل . . لعنة الله على الفراغ . . وابتعدت العربة بسائقها العسكرى الشديد الانضباط ، واختلت مواعيده ، كان يصحـو فى السـابعة صباحا يقرأ الجرائد ، يستحم ، يفطر مع زوجته إلهام المدير العام فى وزارة الزراعة وأولاده

ثناء الطالبة فى كلية الإعلام ومحمود الذى يعيد الثانوية للمرة الثانية ، وأخيرا تامر الطالب فى مدرسة الحرية ، حيث يأخذ جميع دروسه بالإنجليزية وله دروس خصوصية بخمسين جنيها فى الشهر ، غير الابن الثانى الذى يلتهم مصروف العائلة فى سبيل الحصول على الثانوية .

قبل أن يحين موعد الخروج الرسمى . . . احتفل به أولاده الذى كان يربيهم فى الجيش .

وفى عالم الهندسة الذى كان يهتم به أكثر من التقاليد العسكرية . . لم يكن يبخل بمعلوماته . . فهم سيكونون غدا القادة والرؤساء . ثم احتفال رسمى ضم كل الخارجين على المعاش ، بعضهم لم يصل بعد إلى الأربعين . . ومنذ ثلاث سنوات قبل ترقيته إلى عميد كان العمل فى مصر كثيرا وأبناء إدارته مطلوبين فى كل مكان . . حتى الضباط الاحتياط الذين كانوا ينهون خدمتهم . . كان عليه أن يجد لهم عملا قبل أن ينهوا أوراقهم . . حتى لا يقفوا فى مستنقع الضياع ، وكان كل منهم يجد طريقه فى العمل المدنى . . فهو يعرف أغلب الشركات بحكم عمله وحياته كلها مع شركات عامة أو خاصة .

ولكن عند خروجه فى هذه السنة الكبيسة . . كانت البلد مديونة والكثير من شركات الاستثمار قد أعلنت إفلاسها وبالتالى صفت أمورها فى مصر . . والقطاع العام يرفض التعيين . . والمكاتب الهندسية الخاصة تغلق أبوابها . . كساد واضح وديون متلتلة وزيادة

رهيبـة فى الأسعار . . ولم تنس زوجته قبل خروجه بأعوام أن تطالبه بالعربة الجديدة الذين ما زالوا يدفعون أقساطها وشقة فى الإسكندرية لم تنته بعد . . بل إن العمل فيها متوقف لأن المقاول لم يأخذ أمواله المتأخرة .

وسـأله السائق العسكرى : هل أبقى مع سيادتك عدة شهور أخرى حتى ترتب أمورك - فهو يعرف أنه لا يستطيع القيادة والعربة المازدا يركبها الآن محمود بحجة توصيل أمه إلى عملها . ولكنه رفض طلب السـائق حتى ولـو كان بعض زملائه يصرون أن تبقى معهم العربات شهراً أوشهرين بعد المعاش . . لا يريد ثرثرة سخيفة بعد خروجـه . لقـد قضى حياتـه ملتزماً مثالياً . . فارساً كما كان يقال عنه . . حتى فى إشرافه على أعمال الإسكان أوتنفيذ المدرسة الجوية أو مسـتـشـفـى المعــادى . . لم يكن ليستــطيع أن يبقى فى عمله الـذى أحبـه وهو مواقع التنفيذ حيث العمال والملاحظون وأبناؤه من المهنـدسـين والضبـاط . . عندما حدث سوء تفاهم شديد فى تنفيذ عمليات الإسكان وكان مدير السلاح وقتها متعاطفاً مع المقاول المتأخر فى التنفيذ والمهمل فى عمله وكانت حجة المدير . . أنه نظيف ومثالى ، ولكن الضبـاط الأصـاغر يجهدون المقاول أكثر مما يستطيع فى تنفيذ الأعـمال حسب المـواصفـات . . طلب أن يترك موقعه . . ولا يغير ضابـطاً واحـدا من أبنـائـه . . وعرضوا عليه أكثر من مكان إدارى أفضـل . . وفضـل أحـد الأمـاكن أو الحجـرات المكيفـة بعيدا عن الشمس والعـمال . . حجـرة لا يعمـل فيها شيئا ، وشعر يومها أنه أصبح أقرب إلى المعاش بعد ما أغضب قائد السلاح . . ولم يضح بضابط من ضباطه .

(٢)

بعد أسبوع قضاه فى البيت . . يصحو فى السابعة مع بقية أفراد العائلة . . الجميع مستبشر بيومه وخروجه إلى العمل أو مدرسته . . وهو لا يجد شيئا يصنعه غير قراءة الجرائد الثلاث التى لا تقول شيئا . . وكان يجب الاكتفاء بجريدة واحدة توفيرا وحرصا على سداد ديون مصر وعلى مشاعر القراء بعد ما أصبحت كل جريدة تفرد صفحاتها للجرائم البغيضة . . غير التشهير بفنانين مشهورين . . وبمباريات الكرة . . أما غير هذا فلم يكن لأحد أن يختار جريدة دون أخرى . .

وبجانب الجرائد . . كانت تسليته الوحيدة هى تدخين السجائر بشراهة منقطعة النظير ، وشرب الشاى ثم القهوة ثم العودة إلى شاى . . لم يكن له أصدقاء قهوة ولم يكن له هواية جلوس فى حدائق النوادى . . حيث يكون الحديث عن الأحوال الحالية أكثر وطأة على النفس .

بعد أسبوع . . بدأت زوجته تقلق عليه . . فقد أصبح لا ينام لأول مرة فى حياته إلا . . بالحبوب المنومة . . ولا يريد أن يجلس مع العائلة حول التليفزيون ملتفين حول التمثيليات الثقيلة التى تزيده إحباطا وكرها للحياة بما يقدمونه من نماذج سخيفة ومن تطويل ومآس غبية تخنق القلب المرتاح .

وبعـد أشهر بدأت المشاجرات بينه وبين زوجته وهو يدفن ألمه وضيقه بالفراغ بعد ما كان يعود فى الخامسة مساء عندما كان يشرف على عمليات الإسكان التى تعمل طوال الأربع والعشرين ساعة .

زوجته تلح عليه . . توخزه كل صباح . . لماذا يبقى ساكنا . . لماذا لا يبحث عن عمـل . . الماهية الباقية من قسط العربة والشقة يصرفهـا على سجـائره وحبـوبه المنومة . . والأولاد لهم مصاريفهم الكثيرة ، وخاصة ذلك الذى يعيد الثانوية للمرة الثانية .

قال لها بحـدة : أنتظر تليفوناً من إحدى الشركات التى كنت أشرف على تنفيذ أعمالها .

قالت بحـدة أكثـر : لماذا لا تتصـل بهم بدلا من قبـوعـك فى البيت . . أوتكلم صديقك المقاول الثرى قطـامش الفلسطينى الأصل .

قال مستخفا : لقد اتصلت به أول واحد . . وكانت إجابته أنه يصفى أعـمالـه الآن فى مصر . . وسيتجـه إلى ليبيا . . والآخـرون اتصلت بهم ووعدونى خيرا . . والسوق يعانى من الكساد والتعطل .

عادت تقـول : لماذا لا تكلم زوج عمتـك . . الـرجل أصبح صاحب سلطة الآن وكان يجد طريقه بصعوبة منذ سنوات .

قال لها : لا تفكرينى بأقاربى . . لقد اتصلت بهم ولكنهم هربوا بعد ما طلبوا شهادة الخبرة وسنة التخرج ،ولـم ينس زوج أختى الحبيبة التى كنت سنداً لها فى أول أيام زواجها أن يقول لى بسماجة : لماذا لم تكمل فى الجيش حتى تصبح لواء ، وكأن الأمر مرده لى ، وكأن الدفعة لم تخرج أكثر من ثلثيها معاشات .

تتركه غاضبة هاجرة لتنام فى فراش ابنتها ثناء . . تتركه لحبوبه وسجائره المشتعلة الواحدة من الأخرى . . يسهر حتى ينتهى البرنامج الموسيقى أو العام .

ومـع ذلـك يستيقظ على جلبـة الصبـاح والأولاد خارجون إلى مدارسهم نشيطين فرحـين ومع الوقت شعر أنه إنسان غير مرغوب فى وجوده فى البيت . . الأولاد يلتفون حول أمهم وهو منزوٍ لا يشعر به أحد . . لقد وضع حول نفسه سياجا من الكآبة والضيق ، وهم غطوا السياج بأكياس من الخيش إمعانا فى إجباره على اجترار أكثر فترات حياته قسوة وضياعا . . حتى جيران البيت تساءلوا عن عدم خروجه إلى عمله . ولما عرفوا أنه أصبح على المعاش . . شهقوا جميعاً . . فى هذه السن المبكـرة لماذا . . ولـمّـا لم يجبهم أحـد . . قلت زياراتهم . . وابتعـدت أيضاً زيارات الأصدقاء والأقارب والإخوة الذين أصبحوا لايجـدون فى إبراهيم العظم تفاؤله القديم ومرحه وسخريته من كل الأشياء مهـما كانت تفاهتها . . أصبحوا يجدون إنسانا معقدا كارها

للحياة . . غاضباً يجتر آلامـه وحده، قليل الكلام . . ضيق الخلق سريع الحدة شديد الحساسية حتى ولو عن طريق كلمة غير مقصودة . .

لذا ابتعدت الأرجل عن البيت الذى كان عامرا بضيوفه وأقاربه وجيرانه طوال السنين الماضية .

* * *

(٣)

حتى خادمة البيت العجوز التى كانت تأتى البيت ثلاث مرات للتنظيف والغسيل والكى والطبخ إذا لزم الأمر . . بدأت تضيق من وجوده فى البيت . بالرغم من أنه طوال وجودها فى البيت كان يقبع فى حجرته لا يخرج منها إلا إلى الحمام أو لعمل كوب شاى لنفسه . ومع ذلك بدت مضطربة ضائقة من وجوده معها فى البيت . . تلمح له أن يخرج يشم نسمة هواء نقى ، يتحرك إلى الخارج يشاهد بشراً . . يجلس فى أحد المقاهى . . يزور صديقاً فى مكتبه .

واستمرت هذه الحالة . . الأصدقاء المقربون لا ينصحون بفتح مكتب هندسى خاص . . الحال فى البلد لا تسر . . وفتح مكتب فى هذه الظروف معناه الهزيمة على طول الخط .

والخادمة العجوز تضيق لوجوده فى البيت تريد أن يتركه بمجرد دخولها . . أصبحت تحضر مبكرة عن موعدها ، تثرثر بصوت عال :

إنه يعطلها عن تأدية عملها بوجوده فى البيت . . ترتدى « شبشباً له » كعب مدبدب . . تدب به على الأرض وعلى رأسه المتعب ، تشعل الوابور من أجل الغسيل ، تفتح الراديو . . فقد أصبحت عجوزاً منهكة صماء . . ولا تعرف كيف تؤدى عملها إلا بصوت الراديو المرتفع .

قالت له يوماً بوقاحة : لماذا لا تبحث عن عمل . . لقد أشرفت على تربيتك . . وأرى أنك لم تتعد الأربعين ـ أمامك عشرون سنة يمكن أن تقضيها فى عمل متواصل ، وزوجتك تقريباً فى نفس العمر . . اذكر والدتك ألف رحمة تنزل عليها كانت تخاف عليك من هذا الزواج . . لا سمح الله . . لا عيب فى الست إلهام إلا أنها تزيد عليك فى العمر . . وجهك الذى يراه لا يعرف عمرك . . يعطيك ثلاثين سنة . . صحة وقوة وعافية . . لم تظهر بيضاء واحدة فى شعرك . .

ضحك من غزل العجوز وشعر أنه قوى شاب ولكنه يريد معجزة تجعله يخرج عن جموده . . وينزل الدرجات ويخرج إلى الشارع . . إلى الهواء . . إلى البشر .

وفعلا خرج تحت إلحاح العجوز ليجلس على قهوة فى نهاية الشارع الذى يسكن فيه منذ سنوات عديدة .

واحتار ماذا يطلب شاى أو يانسون . . ولكن النادل أحضر له شايا ساخنا وبورى . . وضحك فى سره وهو يشد مبسم البورى لأول مرة فى حياته . لو رآه عسكرى أو ضابط كان عنده ماذا يقول . .

وشده أثناء جلسته فى القهوة رجل يجلس على مائدة أخرى ، يخرج من جيبه ورقة حمراء شفافة داخلها قطعة بنية صغيرة . . يضع قطعا صغيرة بعد أن يقطعها بأسنانه على المعسل . . وشم رائحة زكية من ناحية زميله فى القهوة وعرف على التو أن زميله يدخن المخدر فى الصباح ، وكان يظن أن ذلك يتم فى الليل فقط وفى سهرات خاصة ، ولكن على قارعة الطريق ، والقهوة مزدحمة ، ونادل شاب رقيق يبتسم فى وجهه ، والرائحة مازالت مستمرة . . وزميله فى القهوة يحييه . . ثم يأتى ليجلس بجانبه ببساطة .

ـ البيه جديد على الحى . . لم نرك من قبل فى القهوة .

ـ الحقيقة هذه أول مرة أجلس فيها على القهوة . . ولكننى لا أسكن بعيدا عنها .

ـ أهلًا . . شرفت القهوة . . حجر جديد يا فرج . .

ـ البيه بيشتغل فين ؟

ـ الحقيقة كنت باشتغل والآن خالى شغل كما ترى . . وأنت ماذا تفعل ؟

ـ كهربائى . . وأحيانا سائق تاكسى فى الليل . . والذى أصبح فى سن لا يتحمل فيه الزبائن ومتاعبهم .

ـ يعنى لا وقت تضيعه .

ـ وقت . . ياريت . . نفسى فى يوم واحد أروح فيه اسكندرية « فسحة » يعنى .

ولكن ورائى ثلاثة إخوة يتعلمون فى المدارس . . « غاويين » دراسة ومدرسين خصوصيين . . أبوهم فرحان بيهم . . هيجيبوا الديب من ديله لما يخلصوا . . لا يعرف أن الجامعى يتعلم خمستاشر سنة . . وبعدين التجنيد . ولما تفتكره القوى العاملة . . يكون فات الثلاثين . . وكل ده علشان أربعين خمسين جنيه بعد طلوع الروح .

ـ لكنى « شايفك » قاعد على القهوة وسايب عملك .

ـ لا ده مزاجى . . قبل ما أذهب إلى الشغل لازم أعمر دماغى بكام حجر مبصوم . . نفسى أعزمك على كام حجر . . لكن شايف البك مستغرب شوية .

ـ أبدا . . أنا سعيد بمعرفتك .

ونادى النادل ليدفع حسابه . . ولكن عرف أن زميله فى القهوة قد دفع الحساب . . . ولا أمل فى الرجوع عن رأيه .

سار فى الطريق على غير هدى . . حتى انهد حيله ، وعاد ثانية إلى المنزل . . لقد سعد اليوم بحديث مع إنسان لم يره منه قبل . . انسان يعيش حياته ولا يجد وقتاً للفراغ .

* * *

(٤)

عاد إلى البيت الكئيب الذى أصبح يجد نفسه غير مرغوب فيه بعد خروجه على المعاش .

حتى زوجته لا تتركه فى حاله . . تنعته بالخمول . . أين أصدقاء الـزمن القـديم . . أين صديقـه المقاول الذى يفتح مكتباً فى عمارة بالزمالك ، والذى كان ملاحظاً فى بداية عمره . لقد ساعدته كثيراً . وأين ذلك النقاش الذى فتحت له الأبواب الصعبة حتى أصبح يملك أكثر من عربة ويدير أكثر من مشروع لماذا لا يذكرونك الآن . . وأنت سبب سعدهم . . عشت طوال عمرك مثاليا نظيف اليد تساعد من يطلب المسـاعـدة وهـا هى النتيجـة . . أصبحت عاطـلا والأصاغر أصبحوا أثرياء عندهم عملهم ومكسبهم المتزايد ، ودخل ثابت من استثـمار البنوك ، وأنت عنـدك كوم أولاد يريدون ملابس ودروسـا خصوصية . . وماهيتى ومعاشك لا يكفيان . . وأنت تدخن السجائر

بشراهة . . ولا تترك حجرتك . . لم تكن أول واحد يحيلونه إلى المعاش في سن مبكرة .

يجب أن تصحو لنفسك وتبحث عن عمل ولو فى المريخ أو حتى فى بلد معادٍ .

لقد جننت . . ولا أستطيع أن أستمر معك فى العيش . . رائحة الدخان تضايقنى وأيضاً صرف معاشك على أمور لا تفيد . . بل تدمر .

وعندك أولاد فى دور المراهقة . . الخوف أن يروك على هذه الحالة المرضية التى تخبئها . . تدفنها فى حجرتك . .

سأذهب لأمى فى يوم قريب لأبحث عن الحل عندها . . لماذا لا تعيد سؤال زوج العمة أو تزور خالك الثرى ، قد يجد لك مكانا ضمن مشاريعه الكثيرة . . وأخيراً لماذا لا تلقى بنفسك تحت عجلات الترام . . تريح نفسك من هذا الصمت والاكتئاب . . وتريحنا أيضاً . .

قال الرجل فى توهان يغير الحديث السام : الخادم العجوز وقعت على ظهرها وهى تغسل بلاط الحمام .

قالت الزوجة فى عصبية : هل أصبح محور اهتمامك الوحيد هو الخادم العجوز . . لقد أصبحت رجلا مخبولا . . يا أولاد تعالوا شاهدوا أباكم المحترم . . الذى كان على كتفيه دبابير ونسرين . . لقد جن وسيحولنا جميعاً بالتدريج إلى الخانكة . .

ثم أردفت قائلة : على فكـرة الفـرخـة المحمرة فى الثلاجة . . محجوزة لابنك وأصدقائه الذين يذاكرون كل ليلة حتى الفجر . واحد ممن يذاكرون معه الآن . . ابن وزير حالى . . ولقد كلمته بشأنك ووعدنى خيراً بعد أن تحدث مع أبيه بخصوصك .

تركته امرأته وهو فى حالة من الغضب المكتوم . . لتذهب وتأتى بفـرشتهـا من حجـرة الصالون لتخلو الحجرة للأصدقاء والمحترمين القادمين للمذاكرة مع ابنه .

عندما اقتربت منه والفراش يضمهما معا بعد فترة طويلة ، كانت المـرأة تخاصمـه فيها . . لم يجد ميلا لمضاجعتها . . أشعل سيجارته وابتعد بوجهه عنها . . ومع ذلك زادت رغبتها فى المضاجعة وهى تمسح على شعره وصدره برقة لبؤة . . فلما انتهى من سيجارته . . أدار جسده بعيدا عنها فى اتجاه الحائط . . والنار تأكلها . . ومع ذلك كان ذلك أقل رد على سخفاتها ولؤمها وصراخها فى وجهه وحرمانه من العشاء الـدسم . . ولم يكتفـ البيت الكئيب بوجـود المـرأة النكدية . . بل وصلت حماته « فكيهة » لتشعل البيت نارا بعد ما وصلتها أخبار ابنتها وسخـطهـا من زوج لا يعمـل إلا المكـوث فى حجرته طوال النهار ، وفكيهـة لها دكـان فى سوق باب اللوق ورثته عن أبيها . . تبيع فيه الفراخ الرومية مقسمة ، وأكياسا من الكبد والقلوب البلدية فضلا عن الطيور البلدية الحية .

ولم يكن يعرف موضوع دكان السوق قبل اقترانه بزوجته وأن أمها تملك دكانا تبيع فيه ساقطة الحتت كما تبيع القطع الرومية التى قيل فى

يوم أنها حيوانات جارحة استوردها مستورد قليل الذمة كعادة الناس هذه الأيام . . وكذلك الأرانب التى لا تؤكل فى بلادها حيث إنها غير صالحة للبشر .

لم يكن يعرف النسب العظيم . . فقد عرف زوجته وهو مازال طالبا فى الهندسة . . تسبقه بعدة سنوات فى الدراسة فى كلية الزراعة . . كانت تركب قبله بمحطتين لتأخذ منه المسطرة الحرف T وكذلك حقيبته . . كانت ودوداً مبتسمة دوما فى وجهه . مشجعة على قيام الصداقة ، وهو الشاب الخجول الذى لم يحدث فتاة من قبل ، كانت أيضاً تلح على أن تنقل له بعض محاضراته . . تأتى له الكلية بعد الظهر أثناء رسم بعض اللوحات العاجلة . . قادمة ومعها ابتسامة عريضة وغذاء طيب وكلمات مشجعة . . ولا تكتفى بهذا ، بل كانت تسهر معه . . لا يهمها ثرثرة الزملاء . . أو تأخرها عن البيت إلى ما بعد الغروب . حتى استطاعت أن تشده للخروج معها والانفراد معا تحت أشجار حديقة الأورمان وفى الشوارع الجانبية . . كانت قوية جريئة عاشقة . تصارحه بحبها من أول يوم رأته فى الأتوبيس الذاهب إلى الجامعة . . وأنها تعرف أنه مازال أمامه سنة حتى ينهى دراسته . ولكنها خائفة أن يتقدم آخرون يحرمونها منه .

وأصبرت أن يقوم بزيارتها فى بيتهم الذى يبعد محطتين عن بيتهم القديم ، تعرفه بسيدة سمينة مثل الغول ولكنها ترتدى ذهبا يكفى كل أخواته البنات . . ذهبا يتدلى فى سلاسل مختلفة يدور حول رقبتها وينزل بمستطيلات ومكعبات ودوائر على صدرها غير الذهب فى أصابعها وحول معصميها .

وقالت له إلهام : ماما . . فيفى . . طبعا اسم الدلع . .

ورحبت به فيفى هانم . . بالرغم من سمنتها ولهجتها الخشنة إلا أنها دللته يومها كابن لم ترزق به . . بل وتركت لهما غرفة الصالون لينفردا معا . . ولتبثه إلهام حبها وقلبها المعذب . . وهى تسأله للمرة الألف ألا يتاخر فى الحضور مع عائلته لخطبتها ولو بدبلتين . . أما عن أمور الشبكة والصداق وغيرها . . فلايشغل باله بهذه الأمور التافهة .

ورفض أبوه النسب وقتها وقال أنه لا يطمئن إلى هذه العائلة التى تبيع ابنتها الجامعية التى كانت على أبواب العمل فى وزارة الزراعة لطالب لم ينه دراسته الجامعية . . حقيقة أنه فى السنة النهائية ولكن من يدرى ومن يعرف أين سيجد الوظيفة المناسبة بسهولة . . وهنا تدخلت الأم قائلة : الولد بيحبها وهى تحبه . . وإبراهيم سيدخل الجيش بعد انتهاء دراسته . . سيكون ضابطا مهندسا تتمناه كل البنات .

ـ ألا يكفيك أن عائلتها ستدبر كل مصاريف الزواج ولن تتحمل مليما أحمر .

قال أبوه فى عصبية وهو يترك المكان : هذا ما يشغلنى من أمر هذه العائلة الفاقدة الذكر والأصل . . والتى لها دكان فى باب اللوق .

ومع ذلك لم يستغرق الاتفاق بين العائلتين أكثر من أسبوعين ، وتمت الخطبة بدبلتين وأسورتين سميكتين اشترتهما إلهام وقتها مدعية أمام عائلتها وخالاتها اللاتى على شاكلة أمها فيفى أنه هو الذى اختارهم عنوانا للحب والاستقرار .

وبعد ما أنهى دراسته القصيرة فى الحربية ، وأصبح على كتفيه نجمتـان ، ووجه براق وجسد ممشوق فى تلك الأيام الخوالى . . تم الزواج فى حفل كبير فى أحد النوادى دون أن يتكلف قرشا واحدا . . كما تم تأثيث شقـة الزوجية فى شقة فاخرة فى ذلك الوقت فى ميدان عابـدين . . قبـل أن ينقلب فى السنـوات العشر الأخيرة إلى ورش عربات ومستودع للعربات الخردة غير محلات الدوكو وقطع الغيار .

وابتعـد إبراهيم العظم عن عائلته بعد ما اختارت لسكناها مكانا فى ضاحية الهـرم . . لا يرى عائلتـه المحـترمة المتوسطة ، أصحاب المناصب المرموقة فى الحكومة . . إلا فى الجنازات وفى الأفراح القليلة النادرة .

واستمرت إلهام فى عملها فى وزارة الزراعة . . . بينما استمر هو فى عمله العسكرى الغبى فى منطقة خارج القاهرة لا هندسة ولا تصميم ولكن أوامر عسكرية وانضباط وطوابير صباح وتفتيش ملابس العساكر الـداخلية . . وكانت بداية حياته العسكرية سيئة مع رائد فى عقله حذاء . . يتعامل مع العساكر كأنهم خلقوا عبيدا له . . يرسلهم إلى بيته فى مصر الجديدة للتنظيف والنقاشة وشراء الأشياء . . حيث كانوا يعملون فى هذه الفـترة فى مدينـة مغلقة على نفسها . . مدينة أشبه ببيوت متناثرة وسط الصحراء . . مدينة فنارة ، ثكنات قديمة من أيام الإنجليز عنـدمـا كانوا يحتلون خط القنال ، وطرق قديمة مصنوعة بالمواد المحلية . . ولكن أقوى من كل الطرق التى كانت تنفذ فى هذا الـوقت تحت إشراف الـرائـد العريض الجسد والذى له ملامح ثور

ولزوجة حديث يستخدمها فقط مع رؤسائه . . والذى كان تحت إمرته ثلاث عربات ملاكى لانتقاله إلى مصر . . مبعدا إبراهيم العظم تماما أن يعرف شيئا عن أعمال التنفيذ . . مكتفيا بالملاحظين المدنيين القدامى . . الذين رفض إبراهيم أن يعيش معهم فى كوخهم الخشبى وسط العملية . . مفضلا أن يعيش فى ميس الضباط فى الإسماعيلية متنقلا بين الإسماعيلية وفنارة فى عربة أحد مهندسى العملية مما أثار سخط الرائد الغبى . . فى هذه الفترة لم ينس له عدم إطاعته أوامره . . فكان دائماً يضعه بقدر ما يستطيع فى مكان خارج مصر . .

ولدت ابنته الأولى « ثناء » التى تبلغ من العمر الآن ثمانية عشر عاماً . . والتى تجتاز مرحلة دراستها الجامعية بتمرد وخشونة لا يتصورها فى فتاة . . فهو لم يربها جيدا . . فقد كان خارج مصر فى سنوات عمرها الأولى . . تربيها فكيهة وزوجته إلهام التى تتخذ مظهر الوقار والأناقة وإن كانت فى داخلها مشاكسة . . لا تنسى أصلها القادم من سوق باب اللوق أو سوق الحتت . .

ولم يستطع أن يغير من طبيعة زوجته طيلة عشرته معها . . لأنه كان رجل البيت فى المواسم والأعياد وعند الإنجاب . . عشر سنوات فى بداية حياته العسكرية قضاها فى مدن ومعسكرات خارج مصر .

* * *

(٥)

دخلت حماته فكيهة عليه مثل النمرة المتوحشة أو البقرة الثائرة . . غاضبة معنفة كيف يترك نفسه بدون عمل . . يجلس فى البيت مثل النساء . . يضايق الخادم العجوز زليخة أثناء قيامها بتنظيف البيت أو الغسيل الأسبوعى . العجوز اشتكت منه . . من وجوده وتدخينه السجائر ورفع صوت المذياع عاليا .

قال : يا حماتى هل يرضيك أن ابنتك تترك فراش الزوجية وتنام فى حجرة الصالون . . ولم تحضر مضطرة إلى الفراش إلا بعد اقتراب امتحان محمود ومذاكرته مع أصدقائه ، وخاصة ابن الوزير الحالى أمجد .

قالت فكيهة وهى تبتسم : طبعا . . فهى تريد أن تشعرك بالمحسوس أن الرجل ليس فقط رجل الفراش ولكنه الرجل الكسيب فى هذا الزمن الأغبر .

قال : يا حماتى المصونة . . معاشى الآن أكثر من ماهيتى يوم تركت الجيش . . غير المكافأة التى وضعتها من غير رضاى فى إحدى شركات توظيف الأموال . . التى أشك فى جديتها بل متأكد من فسادها . . يومها قلبت زوجتى البيت وتشاجرت معى حتى سمع الجيران . . أنا أود أن أضع المكافأة فى بنك حكومى مضمون وهى تصر على الربح الكثير غير المضمون .

قالت فكيهة : سئمنا كلمة معاشك . . ولكنك تدخن به سجائر وتجلس على المقاهى . . وتشترى كل جرائد ومجلات اليوم .

قال : يا حماتى . . لقد كلمت كل أصدقائى ومعارفى . . ولكن البلد تمر بحالة كساد . . وأكثر المكاتب الصغيرة تقفل أبوابها . . والقطاع الحكومى لا يثق فى الضباط . . بل ينظر لهم بنظرة جيد . . تجمعون بين المعاش والراتب الجديد . . متصورين أننى أحب أن أبقى فى البيت . . لا أصنع شيئا وأولادى يذهبون إلى مدارسهم وزوجتى إلى عملها الذى لا تريد أن تتركه من أجلى . . وتسوى معاشها على قدر سنوات عملها .

دخلت زوجته وهى تشوح بيدها : شوفوا الراجل المجنون ، أترك عملى وأنا مرشحة فى الحركة لأكون وكيلة وزارة . . سأكون أصغر وكيلة وزارة . . وأمامى السنوات . . وقد أمسك الوزارة أو هيئة استشارية كثيرة النفوذ . . هل أترك كل الذى صنعته خلال سنوات عملى . . من أجل زميلاتى عيوشة أو فطومة . . أهون على أن أترك البيت على أن أترك وظيفتى بعد كل هذا المجد الذى صنعته بمجهودى .

قالت فكيهة : لا تتركى وظيفتك . . ولكن هو يمكنه أن يفتح مكتبا للمقاولات .

قال : يا حماتى . . سأضيع أموال الأولاد . . لا أفهم فى الحسابات . . كما أن العمال كما تعرفين أصبحوا غير مضمونين .

قالت فكيهة بعد أن حركت سلاسلها الذهبية : أقول لك على فكرة ممتازة . . ممكن أن أعطيك فترينة أو كشك أمام المحل تبيع فيه بعض قطع اللحوم الممتازة .

قال بعصبية : يا حماتى . . بعد كل هذا العمر . . هل تريدين أن أجلس وراء فترينة خلفها محل لبيع الطيور الصاحية والمذبوحة .

قالت فكيهة : حاسب فى كلامك . . هل تسخر منى بعد كل هذه السنوات . . أليست هذه الطيور هى التى جهزت بيتك . . الفترينة معروض علىَّ فيها عشرة آلاف مقدم ومائة جنيه كل شهر .

قال : طبعا لبيع بقايا اللحوم الفاسدة وأكياس الكبدة والقوانص المسمومة . .

قالت فكيهة . لا فائدة ترجى من الكلام معك . . أنا كنت ناوية أتساهل معاك فى القسط الشهرى ، وكنت ستكسب فى اليوم الواحد اكثر من خمسين جنيه .

قالت إلهام بعد تفكير : حقيقة يا ماما فيفى . . إبراهيم عنده حق . . كيف يكون له كشك على الشارع العمومى . . وزوجته وكيل

وزارة . . وابنته الكبيرة على وش جواز . . وابنه الوسطانى له صديق ابن وزير حالى . . ماذا يقول الناس عنا .

قالت فكيهة : لقد جن الاثنان . . على العموم هذه مشكلتكما . . لقد جئت فى موضوع آخر سيفرحكما كثيراً . . طبعاً تعرفون الواد عنبة . . أقصد المعلم عنبة الذى كان يعمل عندى فى الدكان . . فتح دكان صغير على قد حاله . . مسمط فى سوق الليمون وجاء يطلب يدى .

قالت إلهام : ماما . . هل جننت أنت أيضا . . أم وكيلة وزارة تتزوج من صبى كان يعمل عندها . . بينها وبينه ثلاثون سنة عمر .

قالت فكيهة : بنت قليلة الأدب . . أولا ليس بينى وبينه كل هذه السنوات . . يمكن عشر سنوات فقط . . ثانياً لقد أصبح له دكان فى سوق الليمون .

وابتسمت وهى تنظر لزوج ابنتها وأنت إيه رأيك يا إبراهيم . . يا ضناى اخترتك لتكون شاهداً على العقد مع الحاج سماحة . .

قال إبراهيم وهو يضحك : طبعا موافق يا حماتى . . وهو يبقى زيتنا فى دقيقنا . المسمط ياخد من محل الطيور .

قالت فكيهة : إنت بتتريق علىَّ يا إبراهيم يا عظم . .

قال : أعوذ بالله يا حماتى . . هو الواحد ما يضحكش فى البيت ده . .

قالت إلهـام : اسـمعى يا مامـا فيفى . . إذا تزوجت هذا الصعلوك . . فأنا لن أحضر الفرح . . بل لن أدخل بيتك بعد الآن .

قالت فكيهـة : إن شا الله عنـك ما دخلتيه . . ما تكـونيش بتوكلينى ولا باخد منك مصروف كل شهر .

ونشبت معـركـة ساخنـة بين المـرأتين . . أثارت شهوة إبراهيم للفرجة ولكنه فضل أن يتركها تسخن أكثر وهو بعيد عنها . . مفضلا الخـروج إلى المقهى الغـريب الذى كان تعرف فيه على السائق عبد المجيد الأشقر . . وحديثه الشيق ، بعد أن تعددت مرات لقائهما فى الصباح أو المساء . . وبعد ما غير العربة التى يعمل بها عبد المجيد من عربة أجرة إلى عربة بيجو سبعة راكب . . يعمل غالبا مع أحد السياح العـرب الـذين يجزلـون العـطاء فى الفـترة التى يقضونها فى العاصمة . . عمل قليل ومكسب كبير . . يصل بالمائة جنيه فى اليوم الـواحـد . . بعـد ما كان يعمل على جميع الطرق من العاصمة إلى الأقـاليم . عمل كثير ومكسب قليل وأكوام من البشر وأسبتة وحلل وعصابة أفراد قد تسرقه فى يوم من الأيام .

* * *

(٧)

الساعة الثانية عشرة مساء . . والرجل لا يجد للنوم سبيلا . . زوجتـه مستغـرقة فى النوم بعد مشاجرتها الطويلة مع أمها . . وابنه الأوسط محمـود يذاكر مع أصدقائه فى حجرة الصالون ، ابنه الذى يستعد للامتحان المدرسى . . والذى بعد الحصول عليه ينتقل إلى سنة الثانوية اللعينة ، ومع ذلك يذاكر كل يوم حتى الفجر . . أما ابنته ثناء والتى تحاول الحصـول على مدرسـة السكـرتـارية التى دخلتها بعد الثـانـوية والمجمـوع الضئيل الـذى حصلت عليه يومهـا ، والـذى لا يؤهلها إلا لهذه المدرسة ذات السنتين دراسة . . تنام بمجرد انتهاء برامج التليفزيون ، لا تهتم بدروسها قدر مشاهدتها الأفلام وبرامج التليفـزيون مهـما كانت قبيحـة . أما ابنه تامر أعز أبنائه . . والذى ما زال يحافظ على ولائه له حتى بعد خروجه على المعاش فقد نام مبكراً استعداداً للذهاب غداً فى رحلة مدرسية .

زهق الرجل من قذرة زوجته التى تشخر أثناء نومها . . تعبا من العمل ومن المشاجرة مع الست والدتها المهذبة صاحبة الأصول .

فقام إلى الشرفة . . مغلقا على نفسه الخصاص . . فاصلا نفسه مع ضوء النجوم الساطعة والهدوء الخارجى الحالم عن أنفاس وشخير زوجته . . التى مارضيت أن تعود إلى فراش الزوجية إلا لأن محمود يذاكر الآن مع أمجد ابن الوزير . . ولابد أن يكون التحصيل فى حجرة الصالون . . أفضل حجرة عندهم وسط التماثيل وأضواء الأباجورات الخافتة .

جلس فى الشرفة يتأمل ميدان عابدين . . القصر من بعيد خال الآن من موظفيه . . لا يقف أمامه إلا حراسه . . وشلة من الشباب تضحك حتى الصباح ، تركن بجوار عربة قديمة . . وقهوة تغلق أبوابها . . ومن بعيد تبدو مؤخرة سوق الاثنين . . الذى أغلق منذ زمن . . مغطيا أدواته وخضراواته بأغطية من البلاستيك . . بائع الجرائد بجوار المسجد . . مازال ساهرا يبيع الجرائد التى تصدر قبل موعدها .

معه كوب من الشاى البارد وعلبة سجائر . . والنوم لا يود زيارته هذه الليلة . . يتساءل بينه وبين نفسه . . ما الذى يحدث . . السائق عبد المجيد الأشقر . . الشاب الودود الذى تعرف عليه صدفة فى جلسة قهوة عابدين . . أصبح أكثر أصدقائه مودة واحتراماً . . بل أصبح يراه تقريبا كل يوم . . ينتظره . . يجلس يتحدث له عن حياته وكيف أنه ترك المخدر نهائيا ليتفرغ لحياته الجديدة . . يحكى له كل شىء عن

أسرتــه . . وكيف كان أكبر الأولاد . . ولم يستـطع الحصـول على الثـانـوية حتى بطلوع الـروح . . وبعدها وجهه أبوه لقيادة تاكسى تملكه العائلة يدر ربحا إضافيا للأسرة المتوسطة الإيراد ، وكيف أصبح الآن يملك العربة الصالون التى تعمل مع العرب والأجانب الذين تعرف عليهم خلال الشهور الماضية . . يدفعون بلا حساب فى اليوم الـواحـد ، وعن مشروعـه الجـديد مع أحـد هؤلاء الـوافـدين على العاصمة . . أن يفتحا معا محلا لبيع قطع غيار فى شارع يعقوب بعد أن قامـا معـا بشراء محل للمكـواة صاحبـه عجـوز لا يكسب هذه الأيام . . وأنهما يحولانه خلال أسابيع لبيع قطع غيار البيجو فقط . . إنها صفقـة تسـاوى ذهبا . . وكاد يقول لعبد المجيد . . لم أعرفك إلا منـذ سـتـة أشهر كنا نلتقى فيها مرة كل أسبوع . . ثم أصبحنا نلتقى مرة كل يوم . . وتحكى لى كل أسرارك . . وتمتنـع فجأة عن شراب المخـدر علانية . . وتغـير عربتـك القديمة إلى عربة جديدة كبيرة . . وتدخل شريكاً فى محل قطع غيار . . كل هذا فى خلال ستة أشهر . . بل أصبحت تتأنق فى ملابسك وتحاول أن تدعونى للعشاء عنـد الـدهـان . . بل تصمم أن نسهـر معا فى الفيشاوى يوما بعد العشـاء . . وأنت تلح وأنا أرفض بحجة أننى أحب أن نعود مبكراً لمسـاعدة الأولاد فى دروسهم بدلا من المدرسين الخصوصيين الذين يأخذون كل الرواتب الآن . ما حكاية هذا السائق اللطيف البشوش الأنيق الآن . . والذى مازالت آثار الحنة على أصابعه وما زال لا يهتم باختيار ربطات العنق برغم أناقة وغلاء ملابسه عندما يكون فى انتظاره .

وما هذا الود الخالص والاحترام الذى لم يعد يقابله فى البيت أو فى الشارع أوحتى عند مقابلته مرءوسيه السابقين صدفة .

وما حكاية الغنى المرتقب . . بعد افتتاح محل قطع الغيار ، هل يود أن يخدعه . . يسحب بعض مدخراته . . ضابط على المعاش عنده مكافأة سخية . . الجميع يحسدون ولا يعرفون أن هذا الرجل قد ترك الحياة تماماً فى الأربعين ، ولا يجد بديلا أو عملاً آخر . . عملاً مناسبا للدبابير والنسور . .

هل يكون الود وراءه عطف . . وأنه يود أن يسند له إدارة المحل أثناء تغيب الشريكين . . على الأقل محل قطع الغيار أفضل بكثير من كشك بيع الكبد والسجق وبقايا حواصل الديوك والفراخ . .

أمر هذا الشاب أو هذا الرجل الأشقر بجيدة ، والساعة تدق الواحدة . . من محطة صوت العرب . . لماذا لا يصنع لنفسه كوب شاى آخر يساعده على السهر مع الجو الحالم ونسمة هواء بدت فى الجو الساخن مع النجوم التى تشكل أشكالاً وألواناً فى السماء . . لعلها هى الأخرى ليست سعيدة أو منتشية كما تبدو من بعيد .

وفى الطريق إلى المطبخ . . شعر بشىء يقلقه فى حجرة الصالون . . ابنه محمود وصديقه أمجد الذى مازالت عربته الأسبور واقفة أمام باب العمارة وصديق آخر من نفس الحى ، يذاكرون حتى هذه الساعة . . وهم فى الطريق إلى امتحان نقل يدبره المدرسون الخصوصيون أكثر من تفوقهم أو تحصيلهم . . وفكر فى لحظة أن يفتح الباب عليهم ـ ملقيا عليهم تحية المساء محييا بالذات ابن الوزير الذى

يبحث له عن عمل مناسب فى إحدى الوزارات الحكومية . . مستعد أن يصنع لهم شاياً يساعدهم على التحصيل .

وقاوم فى نفسه مباغتة الصبيان لكنه لم يستطع . . وهو قادم من المطبخ فى طريقه وسط الصالة التى تسبح فى ظلام دامس . . فتح الباب برقة عليهم . . ليفاجأ بالثلاثة فى حالة توهان . . والحجرة مغلفة بدخان كثيف . . والثلاثة يشربون المخدر من خلال كوب عليه صفحة ورقة سوليفان . . ولم يشعر بنفسه إلَّا وهو يصيح غاضبا فى ابنه وهو يرى بقايا قطعة المخدر وسط علب السجائر الأجنبية .

حتى أن الولدين الآخرين . . فرا هاربين من باب حجرة الصالون المطل مباشرة على بسطة السلم . . متناسيين كتبهم وعلب سجائرهم . . ووقف ابنه أمامه مثل التمثال . لقد أصبح تقريباً فى طوله . . يود لو يصفعه . . ويمسك أصابعه . . وقد بدا فى قمة عصبيته ، ومع ذلك يكبت كل خلجة . . كل عصب فى جسده حتى يتضح الصباح . . ويكون له معه حديث هادىء . . كما تعود فى تربية أولاده . . إلا أن الولد النطع وهو يترك له حجرة الدخان والمخدر . . قال له بلهجة سخيفة : كنت أظنك لا تجرؤ أن تدخل علينا ـ بدون استئذان أو أن تدق على الباب . .

يا ابن الكلب . . يا ابن الحرام . . يا ابن الضلال لقد أمسكت أعصابى وشددتها جيداً حتى لا تنفجر أمام أصدقائك أعدائك ومع ذلك تعلمنى الأدب والسلوك الآن . .

ولحق بابنه فى الصالة . . والولد ضعيف ومع ذلك لم يترك جزءاً من جسده إلا بعد أن أهانه كما أهانه الصغير منذ قليل . . والأم والابنة والولد الصغير يستيقظون . . والجمع يحاولون أن يخلصوا الولد من أبيه . . والأم تدعو على الجميع وعلى نفسها باللعنة الأبدية ، وبهذا الأب الملتاث العقل الذى لم يترك ابنه إلا وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة . . يبكى بكاء مراً مثل النساء المحزونات . . فى هذه الليلة بالذات . . هو الذى أخذ اللحاف والمخدة وذهب إلى حجرة الصالون لينام بعد أن فتح جميع النوافذ ليدخل الهواء النقى . . بعيداً عن زوجته المتبرمة الضيقة العقل المثيرة للشغب فى جميع الأحوال . . وكيف تطرد أصدقاء الولد وخاصة إذا كانوا من علية القوم . . الفساد والعظمة متفقان وأفضل من التعطل والسلوك الطيب .

* * *

(٧)

تمت ترقية زوجته إلهام وجاء اسمها فى التعيينات الجديدة لوكلاء الـوزارة الجـدد فى الجرائد الثلاثة . . ولم تسعها الفرحة فأقامت فى بيتهم حفـلاً واسعـاً للمـوظفـين ولأقاربها وحضرته ماما فكيهة التى « نقطت » ابنتها فى هذه الليلة بشيك قدره ألف جنيه . . محبة واعتزازا وطلب موافقة على الزواج من الواد عنبة ـ إلا أن إلهام الخبيثة لم ترض بهذا الشيك فقط ـ بل طلبت من أمهـا أن تكتب لها نصف العمارة القديمة المتهالكة التى تملكها فى شارع المبتديان . . خوفا من الزمن واحتسـابـا لكـل الـظروف حتى توافق على هذه الزيجة الجديدة . . فالوالد صغير . . وقد يعجبه الحال ويستمر . . ولا يفعل مثل الأزواج السابقين الذين توفوا إلى رحمة الله أوهربوا بجلدهم فى الوقت المناسب .

ولم يحضر إبراهيم العظم هذا الاحتفال المهيب . . مكتفيا بإهداء زوجتـه قطعـة قماش من الحـرير . . أخذتها وهى ممتعضة من بخله

المقتر . . مع أنها هى التى تمسك حساب البيت وتستولى على معاشه كنه . . لا تترك له إلا مصروف يد يكفى بالكاد سجائره وجلوسه أحيانا على المقاهى وشراء جميع الجرائد والمجلات . . بل علم بطريق الصدفة أن محمود ابنه الأوسط الذى لم يعد يكلمه أو يحادثه بعد هذه الليلة . . يحصل على مصروف أكبر من أمه وكيلة الوزارة بحجة أنه يعرف الآن أبناء وجهاء وعلية القوم ، وأنه انتقل إلى السنة الثالثة الثانوية بتفوق .

أما ابنته ثناء ـ فإنها ستعيد كالعادة السنة الثانية والأخيرة فى مدرسة السكرتارية . . غير مبالية وغير معقدة من رسوبها المتكرر فى كل سنوات حياتها . . غير مبالية إلا ببرامج التليفزيون وأفلام الفيديو والحديث بالساعات فى التليفون مع صديقاتها فى أوقات غير مناسبة .

أما تامر الصغير ـ فهو الولد المهذب الوحيد فى الأسرة الذى يحافظ على كيانها . . ويود لو يحضر له كل يوم هدية أو كتاباً نافعاً ولكن مصروف اليد لا يكفيه ويكفى طلبات تامر .

وكانت إلهام . . السيدة وكيلة الوزارة . . قد اتفقت مع زوجها أمام جمع حضره بعض أقاربها وأخوالها . . ألا يتدخل فى تربية أبنائها قبل أن يجد لنفسه وظيفة ترفعه فى أعينهم . . بدلا من جلوسه فى البيت لسماع الراديو ومراقبة الخادم العجوز . وخاصة بعد أن أوشك أن يكسر ضلعا من أضلاع ابنها البكر محمود فى واقعة تحدث كل يوم فى البيوت المصرية الآن . . وكان من الحكمة أن يقابلها باتساع أفق وسعة صدر .

والأولاد عرفوا بالاتفاق الجديد عن طريق أمهم وأيدته أيضا ماما فيفى . . التى احتفلت بزواجها من الأسطى أو الصبى عنبة فى حفل مشهود فوق سطح بيتها القديم فى المبتديان . . وقد أصر إبراهيم على عدم حضـوره أيضـاً إمعـانا فى احتقار هذه العائلة السعيدة بنفسها وبأمجادها ، ومع ذلك لم يشعر أحد من المحتفلين أو من أفراد أسرته الصغيرة بعدم حضوره . . بل كان عدم حضوره مدعاة لدعوة محمود لجميع أصدقائه وخاصة ابن الوزير وصحبته الـذين جاءوا هذه المرة ليس بمخدراتهم فقط ، ولكن بأدواتها أيضاً . .

وكانت ليلة مشهودة . . استمرت حتى صباح اليوم التالى .

* * *

(٨)

جاءت الأجـازة الصيفية بتحررها وصخبها . . وقررت زوجته أن تأخـذ الأولاد ويذهبـوا لقضـاء أسبوعين فى قرية المراقية الجديدة فى ضيافة أحد مرءوسيها فى العمل . . وذهبت معهم أيضا ماما فكيهة وكيسها المتسع بالمال بدون زوجها الجديد .

وقالت زوجته أن زليخة الخادم العجوز ستأتى مرتين فى الأسبوع للطبخ والغسيل . . وأنها تركت معها المصروف الذى يكفيه فى هذه الشئون .

شعر إبراهيم بالوجوم وقلة الحيلة وهو يجد نفسه وحيدا لمدة أيام فى المنـزل . . حريتـه الوحيدة هى تدخينه السجائر . . أو الذهاب للقهوة لعله يقابل الصديق الودود الذى اختفى منذ فترة . . وعندما سأل عنـه صاحب القهوة الذى يقترب من الستين والذى تعود على رؤيتـه فى القهـوة بصحبة عبد المجيد الأشقر غالبا . . قال صاحب

القهـوة : يابيه . . انت راجل طيب . . راجل عسكرى عظيم كنا نراك صباحا والعربة الميرى تقل سيادتك إلى الثكنات . . ولكن هذا المدعو عبد المجيد بالرغم من حلو حديثه ومحاولة التعرف بالنبلاء من أمثالك . . ما هو إلا نصاب كاذب مختال بنفسه . . لا تصدقه القول أبدا .

قال إبـراهيم وهو يغالب عواطفه التى أصبحت تضره فى المدة الأخيرة أكثر مما تنفعه : إنه لم يكن إلا صديق جلسة . . ولم يكن بيننا عمل أو ما شابه .

ـ صديق قهوة كما تقول ظريف وحلو الحديث وكثير الحكايات المسلية .

وعاد إبراهيم يقول : ويجوز انقطاعه عن القهوة ـ لأنه كان على وشك افتتاح محل لقطع غيار السيارات .

قال صاحب القهوة وهو ينهى الحديث ويعد الماركات : يجوز . . إنه على كل حال ولد طيب . . زبون دائم للقهوة . . سيظهر فى يوم قريب . .

وامتنع إبراهيم عن الذهاب إلى المقهى ، أو حتى هبوط درجات السلالم إلى الشارع . . فزليخة تأتى مرتين فى الأسبوع بالخضراوات واللحـوم لطبخهـا وكذلك الخبز الذى يكفيه . . والجرائد تأتيه عن طريق السبت المدلى بالحبل من بائع الجرائد عم مسعود الذى أصبحت تربطه به علاقة وثيقة عندما ينادى عليه فى الصباح المبكر . . صارخا :

عم مسعـود . . جرائد اليوم . . والمعارضة والمجلات . . وكان عم مسعـود أحيانـا لا يجد حسـاب الجـرائـد بأكمله فيتـطلع إلى أعـلى ويقول . . غدا يا بيه . . نكمل الحساب . .

الإنسان الوحيد الذى ارتبط به بعد فترة غياب الأولاد التى طالت أسبوعا ثالثا بعد مكالمة قصيرة من زوجته تنبئه بأنها قد مدت أجازتها عن طريق الوزارة . الإنسان الوحيد الذى ارتبط به فى كل هذه الدنيا التى كانت مزدحمة ثم أصبحت فارغة تماماً من حوله هو عم مسعود بائع الجرائد العجوز . . يشعر أن الرجل يبتسم له مشجعا وهو يضع الجرائد والمجلات فى السبت . . لا يتضايق أن يأخذ بقية الحساب فى الغد . . حتى الجرائد أصبح طعمها واحداً . . لم تعد تأخذ منه أكثر من نصف ساعـة قراءة . . أومطالعـة سريعـة . . بعدها لا يتذكر ما قرأه أو رآه . . ولكنها عادة مفرحة فى الصباح . . صوت عم مسعود العجـوز المتهـالـك فى سيره . . واستيقـاظـه وبـدء يوم جديد فى الأجندة . . أما بالنسبة له فأسوأ من الأيام السابقة والقادم أحلك من اليوم . . حتى فى يوم سمع جرس الباب . . فتعجب من يدق عليه هذه الساعة . . قطعا هو إنسان مخطىء فى العنوان . . لكنه فوجىء بالسائق عبد المجيد الأشقر . . فرحب به وأدخله حجرة الصالون . . وعنـدما قدم له الشاى . . تفرس عبد المجيد فى وجهه وهو يقول : إبـراهيم بك . . إنـك مريض . . وجهك أصفر . . اسمح لى أن أعرضك على الطبيب فورا .

قال إبراهيم : لماذا هذا الوهم . . يجوز لأننى تركت ذقنى تنمو يومين .

قال عبد المجيد فى ود : إبراهيم بك . . وجهك أصفر مثل الأموات . . أين العائلة لأكلمها .

قال إبراهيم : لا داعى . . على سفر .

قال : إذن دعنى آخذك إلى طبيب باطنى أعرفه فى السيدة زينب . العربة أسفل المنزل .

وذهبا للطبيب . . تحت إلحاح الأشقر . . وفحصه الطبيب جيدًا . . وقال : هل تأخذ منومات أو مهدئات . . قال إبراهيم كاذباً : لا أتناولها قط . . هل هناك شىء يا دكتور . .

قال الطبيب : أريد أن أعرضك على طبيب نفسانى عيادته فى نفس الدور .

قال إبراهيم فى نفسه . . هل العزلة أجهدتنى . . وإذا كان على وجهى أصفر . . فقد يكون هذا من قلة النوم والتدخين بشراهة . .

ولكن الدكتور النفسانى كان له رأي آخر . . إنه يجب أن يعالج فورا وبدون إبطاء فى إحدى المصحات الخاصة . .

ماذا يحدث يا دكتور . . ؟

قال إبراهيم : لنؤجل هذا القرار حتى عودة العائلة من مراقيا . . ولنكتف بالروشتة التى تزدحم بالعقاقير المهدئة . .

ولكن الطبيب نصحه بأنه يحتاج لعلاج أطول فى إحدى المصحات بعيداً عن الجو المنزلى المعتاد .

قال الأشقر : يا إبراهيم بك . . لماذا لا آخذك إلى مستشفى المعادى . . ألم تكن من أكابر الضباط .

فى المعادى بدأوا الفحوص الكثيرة المريبة وإبراهيم حالته تسوء حتى أنه لا يستطيع الحديث . . أو الشعور بمن حوله .

وأخيرا نقلوه إلى سرير خاص فى قسم المرضى النفسيين . . الذين يأخذون وقتاً طويلاً فى العلاج .

ولم ينس إبراهيم أن يسأل عبد المجيد عن سبب زيارته فى الطريق إلى مستشفى المعادى فقال الأشقر : جئت أطلب رضاك وموافقتك على زواجى من ابنتك المصونة . .

وقال إبراهيم وهو يتهته فى الحديث لأول مرة . . لا يتمالك نفسه من إخفاء مشاعره ، وهل هو مستيقظ أو نائم ؟ ومع ذلك تمالك نفسه وهو يسأله : هل تعرفها ؟

قال الأشقر بغلظة غير مقصودة : إننا متحابان من قبل أن أقابلك . . ولذا سعيت أن أصادقك . . وأن أعرفك بنفسى . . ولما خافت البنت . . تزوجنا سراً قبل رحيل العائلة إلى مراقيا . . ولا أذيع سرا أن ثناء أخذت موافقة أمها وجدتها قبل السفر ، وقد باركتا الزواج ، وخاصة بعد مقابلتى لهما فى منزل فيفى هانم . .

وسقط إبراهيم مغشيا عليه فاقد النطق فى العربة . . قبل أن ينقلوه فى حالة سيئة إلى المعادى . . لا يدرى بما حدث حوله . . لسانه

محجوز عن النطق . . يشعر أنه منفصل عن هذا العالم الذى خلق فيه ومنه . . من العائلة التى كونها . . من المرأة التى اختارها شريكة حياة إلى الأبد .

* * *

امرأة تلبس الحداد

(١)

يسألوننى متى شبت النار فى الخيامية . . متى تصاعدت ألسنة اللهب من المحلات المغلقة يوم الأحد الماضى والسابق لموعد العيد . . ولاأعرف كيف تكون الإجابة .

الخيامية . . الشارع الوحيد المسقوف فى القاهرة المعزية . . الخيامية التى تبدأ من بوابة المتولى والتى شنق عليها طومان آخر سلاطين الجراكسة حتى شارع الدوادية مروراً بقصبة رضوان . . . التى كانت تباع فيها المراكيب أيام العثمانيين ومحمد على .

والتى أصبحت مشهورة فى عالمنا الحالى بصنع خيام الأفراح والمواسم والجنازات . وأيضاً بلوحات من القماش تباع للأجانب والموسرين ومحلات أخرى للزينة والموازين .

والخيامية شارع ضيق به على اليسار حارة زقاق المسك وعطفة

جعفر وحارة الجنابكية ، أما على اليمين فتوجد حارتا القربية والجوخدار المعروفة قديماً بدرب الأزيار .

والشارع به المدرسة المحمودية المعروفة الآن بجامع الكردى ، وجامع إينال المعروف الآن بالجامع الإبراهيمى . . والذى يؤذن فيه حتى الآن الشيخ الكاشف أحلى صوت مقرىء فى الحى . . المسقف بالكمرات الخشبية والمزين بالنقوش الإسلامية القديمة ، والمهجور منه الدور العلوى من المبانى التى تقع فوق المحلات مباشرة خوفاً من انهيار السقوف والمبانى القديمة .

يسألون كيف شب الحريق الذى أتى على كل الخيامية . . من مبان وسقوف ومحلات قبيل صلاة الفجر . . والناس نائمون والمنطقة هادئة ساكنة . . بها لمسة من حزن الليل . . سمع صوت انفجار . . أعقبه أصوات فرقعات آتية من الدار القديمة المسماة بالوكالة أو بيت القردمية . . وهى دار متخربة . . يقال أن الذى بناها هو الأمير جانى . . أحد مماليك السلطان الناصر قلاوون . . وبعده سكنتها أخت الناصر المعروفة باسم خوند عائشة خاتون . . المعروفة بالقردمية . . وهى الآن أصبحت محلات للزيوت والمواد الكيميائية . . يقال أن النار شبت من هناك وامتدت مع الهواء والريح العاصفة فى تلك الليلة السوداء . . حتى وصلت إلى بوابة المتولى .

وجاءت عربات الحريق والإسعاف بعد فوات الوقت . . وأتت النيران على كل جمال فى الحى القديم .

عند بوابة مشرحة زينهم الواقعة عند مقابر زين العابدين . . كان يقف جمع . . من أهالى منطقة الجمالية . . ينتظرون جثث ذويهم ممن أودى بحياتهم الحريق المشهور . . وعلى أسوار القصر العينى . . كان هنـاك جمع يسـألـون عن أصدقائهم وأحبابهم . . وفى قسم الدرب الأحمر . . كان يدور التحقيق .

* * *

(٣)

عشت المرض وعشت الوحدة والكآبة . . تزوجت وطلقت . . وماتت أمى . . ومات أبى قبلها بسنوات . . ولم يعد لى أحد فى الدنيا الـواسعة الضيقة الخاصة بى . . حقيقة عندى محل فى الصباح . . أتكسب منه عيشى ولكنه عمل فارغ . . لا يأخذ نفسى أو حيويتى ولا يعطينى حتى متعة الحياة . .

لى صديقات قليلات وأصدقاء نادرون ولكن أخاف على نفسى من ألسنة السوء . . لذا قلت متع الحياة بالنسبة لى . . وعشت مترددة خائفة حتى من تجربة الزواج مرة أخرى . . وداست على الحياة . . حتى جعلتنى مثـل فطيرة . . تم فردهـا بواسـطة أداة الفـرد . . وأصبحت إنسـانـة هشة ضحلة سخيفة مع الناس والأصدقاء القلة وبقايا الأقارب .

لم يعد لى أحد أرتكز عليه أو أحيطه بحبى وحنانى . . أو أحد يضمنى إليه أحتاج له أحيانا وبكثرة هذه الأيام ، إلى أحد أحبه . .

يحيطنى بقـوة ذراعيه . . يقـترب بصـدره الفتى إلى صدرى . . يضمنى . . يهصرنى . . ولكن لا أحـد . . سوى وسـادة خائبة لا تنفع ولا تعطينى حنانا أو مودة .

والحياة الفارغة مع سجائر لا طعم لها مع تليفزيون ملون . . مع وحشة حوائط ، وكلب ضال يرقد على درجات السلم . . هذه حياتى متى بدأ أذان العصر وعشت للوحـدة وعاشت لى . . ولم يعد يعكر شقـاء حياتى شىء ما . . أرتقب المـوت وأنـا ما زلت فى الخـامسـة والثـلاثـين من عمـرى . . لم أمرض حتى الآن ، لم أذهب لطبيب الأسنان . . أو دكتور العيون . . لا أشكو من شىء . . فقط الوحدة . .

كأن الله وجـد عذابى كبـيراً وكثـيراً فرحمنى من أمراض القلب وأمـراض الشيخـوخـة واستكفى بأمـراض الـوحدة والقلق النفسى والترقب الرائع للموت الذى لا يتعجل معى مشواره .

ولم يكن عنـدى ذكـريات عزيزة أو بعيدة أسـترجعها إلا ذكرى واحدة . . لرجل أو شاب عرفته وأحببته حبا جما . . ثم سافر منذ أكثر من عشر سنوات . . ولم يعد ولم أسمع عنه شيئا خاصا أو عاما . . كان هذا الشاب وقتئذ يصغرنى بثلاث سنوات ورفضت بالطبع عائلتى وكذلك عائلته أن نتزوج لفارق السن . . وذهبت سنوات .

وتزوجت ولم أوفق فى زواجى . . وطلقت ولم أنجب حتى ولدا يمـلأ علىَّ حياتى ، ومـرت سنـوات العمـر . . وظلت ذكرى ذلك الفتى . . الذى لا أملك حتى صورة له . . أتذكر فقط أنفه الضخمة

بعض الشيء . . وشاربا يملأ وجهه . . وجه نحيف صارم ، جسد نحيف ليس بالـطويل . . هادىء الأعصـاب حتى حد الملل . . لا يبالى فى تصرفاته . . ومع ذلك أحببته حبا ملك على فؤادى وقت معـرفتـه . . الـوحيد الـذى كانت تربـطنى به علاقـة جسدية قبل زواجى . . علاقـة أثمـرت جنينا لم يولد . . لوكنت أعرف عذاب السنوات . . لأبقيت على الطفل . . طفل المحبة . . حتى ولو جاء عن طريق الخطيئة .

عودتنى الحياة أن آخذ الحياة كما هى . . ولا ندم على مال ضيعته أو شقة فاخرة على النيل بعتها بعد طلاقى ، ولم أستفد منها كما تعود النـاس جميعـا فى السنـوات الأخـيرة على حديث المال وحبه والمنفعة والمكسب الحـرام قبـل الحـلال ولم يعد يشغلهم لا صحة ولا سعادة ولا استقرار . . فقط جمع المال . . وأصبح نبراسا وأصبح هدفا .

ولكننى ولدت قبل هذا العصر . . فلم يحدث لى التغيير الذى أصاب كل الناس . . ويجوز لأننى وحيدة وشقية وضائعة . . وماذا أفعل بالمال . . هل هو الذى سيدفئنى أو يحيطنى بالعناية أو يضمنى إلى صدره .

كل الذى أذكره أننى منذ عدة شهور أقدمت على محاولة للانتحار لكنها فشلت وضاعت المحاولة مع الزمن والأيام التى أصبحت تتعاقب مثـل العـاصفـة وأوراق الشجـر ، وحياتى الآن مثل مياه راكدة فى مستنقع . . لا يحركها شىء . . حتى جدث اللقاء المميز الذى كنت لا أرتقبه .

في عصر أحد أيام الشتاء . . ذهبت لأزور قريبة لى تسكن فى حى القلعة القديم . . زيارة لم يكن لها داع سوى الفراغ والوحدة . .

ومنزل القريبة يطل على الميدان . . حيث جامع الرفاعى والسلطان حسن . . وحيث المنظر أخاذ جذاب . . ونحن فى حديثنا . . تدخل علينا جارة عزيزة لقريبتى وتشترك معنا فى الحديث . . وتسألنى هل أنا متزوجة الآن . . أم لا . . ؟

ثم تسألنى بخبث : هل زارك « سامى وهدان » . . إنه الإنسان . . الفتى الشاب الذى أحببته حبا ملك قلبى ثم سافر إلى أوروبا منذ أكثر من عشر سنوات مضت .

وأسأل فى قلق : ولماذا تسألين . . ؟

تقول الجارة فى رقة لزجة : إنه فى مصر منذ شهر ، وقلت لنفسى لابد أن يسأل عنك أو يذهب لزيارتك .

الجميع فى المنطقة القديمة قبل أن نتركها كان يعرف بقصة حبنا المستحيل وقتها . .

وأصاب بخيبة أمل . . هل يأتى إلى مصر منذ شهر مضى ولا يسأل عن فتاته التى عاشت فى حبه سنوات طوالا . . وفشل زواجها القصير . . لأن شبحه كان مقيماً معنا . . لو كانت العائلتان وافقتا على زواجنا أيامها . . لكنت أصبحت أسعد امرأة . . ولكان لى طفل منه . . من الرجل الذى أحببته ولم أحب بعده أحدا .

وأتمالك نفسى وأسأل جارة قريبتى فى حزن : وهل سافر عائداً إلى البلاد التى عاش فيها عشر سنوات .

وتقـول الجـارة : لا أعلم . . ولكننى سمعت أنه يسأل عنك بعض المعارف لأنه لا يعرف عنوانك ولا رقم تليفونك الجديد .

ودق قلبى دقات عنيفة . . كأن دقات القلوب جميعها . . أو أن قلوب العالم كلها تدق مع قلبى .

ولا أستطيع الجلوس ولا أستطيع الحركة . . أريد أن أطير إلى شقتى الـرطبـة فى هذا الوقت . . أحضن الحوائط . . أدفن نفسى بها . . أشرب فنجان قهوة وأدخن سيجارة وأحلم بالحب الوحيد فى حياتى . .

هل حقيقة هو عاد . . هل هو حقيقة مازال موجودا فى مصر . .

ولكن الجارة قالت لى وهى تودعنى أنها رأته منذ أسبوعين . . قد يكون سافر . . وقد يكون الآن فى البلد الأوروبى الذى اختاره ليكون موطنه الثانى .

أبحث عنه . . وأتنسم اخباره وهو لا يدرى بى . . قد يكون الآن فى جلسة مريحة فى موطنه الثانى . . بجانبه طفلة صغيرة أنجبها من زوجته السويدية .

ماذا أفعل . . أريد أن أراه ولو مرة أخيرة . . قبل أن ينقلونى جثة هامدة إلى المقابر ، فى المرة الأولى للانتحار أخذت عشر حبات . . لماذا لا أتشجع وآخذ عشرين حبة الآن . .

وأتوقف فى طريقى إلى البيت لأمر على صديقتى المخلصة الوحيدة « ابتسام » اسألها المعونة واسألها أن تسدى لى هذا المعروف بالذهاب إلى بيت عمه .

ومع القلق . . يملكنى الفرح . . إنه جاء ثانية إلى مصر . . وإنه سأل عنى ولو سؤالا عابرا فى شارع الصليبة . . هناك حيث نما حبنا الذى لم أنسه مطلقا .

تقول ابتسام : أنت مخبولة . . تبحثين عن رجل قد تركك وترك موطنه منذ أكثر من عشر سنوات . . متزوج وله طفلة فى بلاد السويد . . يا حبيبتى أنت لا تكبرين أبداً . . إذا أردت زوجا . . سأتصرف من أجلك . . سأنشر اعلانا فى الجرائد . . وستجدين أربعة رجال على الأقل أمام بابك . . يطلبون الدخول . . لماذا لا تعطينى فرصة المحاولة وانقاذك من هذه الوحدة المضنية .

أرجوك يا ابتسام ، أقول : سأنتظرك فى الغربة . . عليك فقط النزول وصعود الدرجات وشرب الشاى مع صديقتك القديمة ابنة عمه وسؤالها من خلال الحديث عن « سامى وهدان » هل سافر . . هل مازال موجودا فى مصر . . أو فى الزقازيق مكانه القديم وبيت عائلته .

لم أعرفه فى الزقازيق . . ولكننى عرفته فى القلعة مكان الأجداد . . وعن طريق بيت عمه الذى توفى منذ سنتين . . وكان صديقا لأبى . . مات الرجلان على فترات متباعدة .

بقيت فى العــربــة وحيدة لمدة نصف ساعــة . . أرقب المنـظر الخـارجى . . الحـوائط الضخمـة للجـوامع . . الحجارة . . المآذن المختلفـة . . الـزجاج الملون . . البشر والسياح . . وحركة منتظمة للمشـايخ الشـاذلية يتجهن إلى جامـع الـرفـاعى حيث كان الناس يحتفلون بمـولـده . . طفلة ضريرة . . تدق على زجاج العربة تريد إحسانا . . لو عاش طفلى . . لكان فى مثل عمرها .

تعـود أخيرا ابتسام . . ولا تتكلم . . وإنما تتجه بالعربة ناحية « بوابة مكاتب التلغراف والتليفونات » .

اسألها بعصبية : ماذا تفعلين .

تقول بعفوية : سأطلبه لك فى الزقازيق . . أنه ما زال هناك . . قالوا فى بيت عمه أنه سيسافر الأسبوع القادم . . ولابد أن تريه قبل الرحيل حتى تقتنعى . . أنه لا يصلح لك ولا تصلحين له . . والقدر كان بجـانبك عندما رفض الأهل زواجكما . . يجب أن تبحثى عن مستقبلك فى تعقل .

أقول وأنا منتشية : ليس لى مستقبل بعده .

توصلنى ابتسام إلى بيتى . . لأنتظر المكالمة فى بيتى . . أسألها فى الطريق هل تتغدى معى . . ؟

تقول : لا أستطيع . . إنه يوم زيارة حماتى . . ولا أريد أن تنفرد بأبنها وأن تعكر صفو حياتى كدأبها يوم زيارتها لنا .

ابتســام صديقتى منـذ الـطفـولة ، قوية الشخصية ، لها عقل

منطقى دائماً مع الحياة . . عقل عملى إزاء مشاكل الحياة . . تزوجت وأنجبت ثلاثة أولاد . . ومع ذلك تحرص أن ترعانى دائماً . . حتى ولو بعدت بيننا الأيام . . هناك التليفون اليومى الذى تطمئن به على ، وهل مازلت أحيا وسط دوامة الحياة .

من البداية . . كانت رافضة حبى المتيم بسامى . . حتى قبل سفره . . قبل اعتذار العائلتين . . ومنطقها فى ذلك أننى أحبه بجنون . . وهو يلهو بى ، والرجل مشكلته أنه عندما يقابل المرأة التى تتيم به . . لا يحبها ولا يحترمها ، وبعد سفره الطويل وانقطاع أخباره . . أيضاً لم توافق على زواجى القصير الذى لم يدم أكثر من ستة أشهر . . قالت يومها لى : إنك تريدين الزواج فقط من غير قناعة بالرجل . . فقط كأنك تنتقمين من المسافر . . والحال أنك تنتقمين من نفسك . . دائماً هى الصائبة وأنا المخطئة . . ومع ذلك أعرف أنها غير سعيدة فى زواجها . . ولا تشركنى فى مشاكلها . . وتقول : كفاك مشاكلك .

صعدت درجات المنزل . . وفتحت الباب بالمفتاح . . وجلست مع الحوائط أتحدث معها . . حتى يدق جرس التليفون . . اسأل نفسى . . هل أجده فى البيت . . هل أجده فى الإسكندرية . . هل يكون فى مصر . . هل يكون قد ترك مصر وسافر . . والتليفون لا يتكلم . . لا يعتذر ، وأضطر أن أفتح زجاجة بيرة لعلها تهدئنى . . ولكن الأمل ضعيف . . حبة مهدئة ظهرا أفضل من الموت خنقا أو إحباطا بجانب التليفون .

الوقت يتحرك ببطء إلى الثانية . . قد تكون حكاية الجارة أكذوبة لزجة . . وقد يكون أنهى ورقه وسافر . . وقد يكون الآن مع زوجته وطفلته . .

وقد يكون سخيفا عند اتصالى به . . قد يسألنى : لماذا تتصلين بى بعدما بعدت بيننا المسافات . . ماذا تريدين الآن . . أنا رجل متزوج ولى طفلة جميلة .

لعله تغير كثيرا . . ومن الأفضل لكلينا أن لا نرى بعضنا البعض . . نعيش على الوهم القديم . . أو أعيش أنا بالذات على الوردة الحمراء الجافة التى مازلت أحتفظ بها . . لعلنى أخطأت عندما طلبت مكالمته فى الزقازيق . . لعلنى توهمت حبا . . فلا أرى غير شبح . . قد أرى إنسانا مريضاً . . قد أرى ذئبا مفترسا . . عنيفا مستأسدا . . قد لا أجده . . قد لا أقابله أبداً حتى ولو رأيته فى نفس اللحظة .

حب مر عليه أكثر من عشر سنوات . . الحب وهم . . ماذا سنفعل مع الزمن . . السنوات ستتفرج علينا . . الحب فسد . . مازلت أضحك على نفسى ، مثل طفلة صغيرة شقية تعرف القليل ولا تعرف ماذا تفعل بنفسها . . حتى أقاربها تركوها وحيدة وذهبوا لشأن من شئونهم .

إن الفراغ والوحشة والضياع والكآبة . . هى التى جعلتنى أطلب إنسانا غريبا فى بيت عائلته . . وأين . . فى الزقازيق . .

وأجلس أنتظر مثل الخائب ينتظر نتيجة امتحانه . . مثل المريض الملهوف ينتظر الطبيب المعالج المزدحم .

ماذا أفعل بنفسى . . لن أفعل شيئاً . . حبة المخدر وتناولتها وزجاجة البيرة وشربتها . . وهناك زجاجة جديدة سأشربها ثم أتغدى وأنام . . وبعد النوم سأنسى اللقاء الذى كان مع الجارة . . وحديثى مع ابتسام . . والتليفون الذى طلبته . . سأنسى كل شىء . . وسأصحو من النوم امرأة أخرى . . امرأة ضحكت على الزمن . . ضيعت منه ساعتين فى النوم حتى يأتى النوم الأخير . .

فجأة . . يدق التليفون فى بيتى . . سامى بشخصه . . بصوته القديم على الطرف الآخر .

ـ سامى . . أنا هنية . . شهر فى مصر ولا ترانى ولا تأتى لترانى . .

وكتمت دموعى من الفرح . . من الشجن . . من العذاب . . من الأمل . . من الألم .

ـ كنت أريد أن أمر عليك . . ولكننى خشيت . . تليفونك ضاع منى . . سألت عليك . . ولو تعرفى أننى مشغول بإنهاء أوراق التجنيد تعرفين أننى هارب منه منذ سنوات .

ـ متى ستسافر .

ـ خلال هذا الشهر . .

وأصبت بضياع وكراهية وسأم وحقد .

ـ ومتى سأراك .

ـ لماذا لا تأتين لى فى هذه اللحظة .

وأغتصب ضحكه وأقول : الآن . . لماذا لا تنتظر حتى الغد .

ـ غدا سأكون فى الاسكندرية . . لماذا لا أراك الآن .

ـ أقول . . أين فى مصر .

ـ لا أستطيع . . سأنتظرك فى الزقازيق .

منتهى المهانة . . ومع ذلك أستمر : ولكننى لا أعرف موعدا للقطار .

ـ سأتصل بك بعد عشر دقائق . . أو أقل . . أسأل فيها عن القطار الذى يصل الزقازيق من مصر . . وسأتصل بك . . اعطينى رقم تليفونك . .

ونـزلت الستارة السوداء على الفصل الأول من شقائى . . من حبى الملتهب الذى لم تفسده السنوات .

* * *

(٣)

هل أسافر . . ولم لا . . حتى أهتدى إلى الإنسان الذى أحببته ولم أحب أحدا غيره . . ولماذا لا تذوقين الوهم الأزرق هذه الليلة ، ومن يعرفنى فى الزقازيق . . ومن يريدنى فى القاهرة . . ظهر يوم الجمعة . . انسانة حرة حتى الفساد . . ضائعة حتى حد العدم .

ودق التليفون ثانية وجاء صوته الحنون : سأنتظرك عند محطة القطار . . الذى سيصل الخامسة والربع . . ووضع السماعة .

جن الشاب . . أو الرجل حسب ما أجده عند وصولى . . الوقت ضيق ولكن جميل ومنعش وحيوى . . فتاة تجرى لتلحق حبيبها . . طفل يجرى ليرتمى فى أحضان أمه بعد طول غياب . . لحظات متدافقة ومشاعر متدافقة . . منذ زمن ماتت الحرارة فى نفسى ، مات الاشتعال والحريق فى قلبى . . امرأة ميتة وجاءت لها لحظة منعشة حلوة . . هل ترفضها . . أريد أن أرى وجهه ، شاربه ، عينيه ، ذراعيه ، صدره . . أريد أن أراه . . أسمع صوته . . أريد أن أكون بجانبه .

وضممت إلى الحقيبة : قميص نوم وعطرا . . وحبوبا مهدأة تساعدنى على الفرحة أو « الغم » إذا قابلته مختلفا شيئا ما . . سيئا كريها ذا كرش مثلا . . أو صاحب كلمات سخيفة مبتذلة وقحة .

وطار بى التاكسى إلى المحطة وكأننى أطير فوق السحاب . . أمسك غبشة منه وأجرى بها . . وطرت حتى وصلت إلى شباك التذاكر ووجدت آخر تذكرة فى الديزل المسافر فى الرابعة إلا ربع بالضبط . . كنت منتشية حلوة . . عدت امرأة من جديد . . وكنت قد نسيت نفسى . . العديد من السنوات . . تليفون منه أعادنى إلى الحياة إلى الجنس الذى ولدت أنتسب إليه .

كنت أتمنى أن أعيش لحظات القطار كالعادة فى هدوء . . أتخيل وجهه . . تفاصيل جسده . . أتخيل أيامنا القديمة . . لقد أحببته حوالى ثلاث سنوات كاملة هى عمرى الوحيد المحسوب فى حياتى القاحلة .

أخذت حبة مهدئة ثانية فى القطار . . أريد أن أكون متماسكة أمامه . . لو تركت مشاعرى لقوتها أو انفعالها لطارت بى فوق القطار . . لدمرت زجاج القطار ، لانتحرت وسط مشاعل الفرح قبل وصول القطار .

ولكن لا يتمنى الإنسان أمنية وهى الوحيدة فى هذه اللحظة لى إلا ويجد النقيض ، وجدت بجانبى . . فى الكرسى المجاور . . امرأة كانت تعرفنى منذ زمن . . كانت مدرستى فى المرحلة الابتدائية . . أخذت المرأة تذكرنى بنفسى . . تدعونى على الشاى والقهوة

والسجائر . . تحكى عن أولادها الذين يتعلمون فى أوروبا وأمريكا وابنتها التى مات ابنها الصيف الماضى .

لم أعش لحظات الترقب والنشوة والعودة إلى الماضى . . كنت أريد أن أتوه مع أحلامى عنه . . ذكرياتى القديمة قبل اللقاء . . كأننى فى ليلة عيد . . هى كل سعادتى . . أيام العيد المقبلة . . ولكن السيدة الثرثارة لم تترك لى فرصة . . أكلت أجمل فاكهتى . .

ونزلت من القطار . . لأجد أخاه فى انتظارى . . نفس القسمات الحادة ، الوجه البارز فيه بعظامه والجسد النحيف . . وأشعر بالضيق . . هل يستكثر حتى أن يحضر ليأخذنى من المحطة . . ولكن فؤادى لم ينشغل بأكثر من اللحظة نفسها رأيته قادما من بداية المحطة . . بخطواته الباردة الهادئة . . بقمسات وجهه الجميل الحادة . . بجسده النحيف المتسق . . بشاربه المهوش . . بأنفه الضخمة . . بأناقته التى كنت أحبها فيه . . وسلم على ولم أبادله العناق . . كان بجانبها أخوه وصديق آخر . . ولم أعد أعرف ما أقول . . أخذنى من يدى . . ينظر لى نظرات محمومة . . نظرات من يريد أن يستفسر عن كل شىء . . من وجهى ومن عينىّ من ردائى . . من عطرى . .

وركبت العربة بجانبه . . وفى الخلف أخوه والصديق . . قلت له : إلى أين ؟

ـ سنجلس فى مكان هادىء واللا إيه رأيك .

لم أتكلم . . أريد لحظة هدوء . . حتى لا أبدو غبية سخيفة . . كل كلمة أقولها يجب أن يكون لها معناها .

وخاصة أننى التى اتصلت به وجئت إلى مدينته باحثة عنه .

فى كافتريا هادئة . . جلسنا معا . . بعد ما رحل عنا أخوه وصديقه . . قلت بانفعال :
ـ سامى . . لقد وحشتنى .

ـ وأنت أيضا . . سألت عليك بمجرد قدومى . . ولم يساعدنى أحد فى الوصول إليك .

ـ هذه غلطتك . .

وكدت أبكى . . لولا أننى تمالكت نفسى أمام جمهور رواد الكافتيريا .

أخرج من جيبه . . محفظة نقوده . . ليطلعنى على صورة ابنته . . شكلها سخيف غبى وليست جميلة . . ولم أقل شيئا .

قال : أعرف أنك تزوجت ولم تفلحى فى زواجك القصير وأنك تملكين الآن محلا للأزياء .

قلت مندفعة : ولكنى لا أعمل شيئا . . ولم أقل أننى وحيدة تماما .

قال : إنك تدخنين السجائر بكثرة .

قلت : هل ألا تجد كلاما آخر تقوله .

وانقطع الحديث بيننا . . حتى سألته :

ـ ألم أوحشك طوال هذه المدة .

ـ أكـذب لو لم أقل شيئا غير هذا . . ولكن المجتمع الأوروبى يختلف عن المصرى . . لا تجدين هنـاك مشـاعـر فياضة . . أو وقتا لتجلسى فيه مع نفســك تحاسبينهـا أو تنقـذينهـا أو تحبينهـا أو حتى تكرهينها . . الوقت هناك محسوب بالدقيقة .

واختفى الحب بيننا للحْظة صغيرة . . وإن كنت مازلت أرى أنه مازال الإنســان الذى أحببته منذ عشر سنوات ولو قابلته توًا فى هذه اللحظة لأحببته نفس قدر الحب ، إنه الإنسان المكتوب على . . إنه توأم روحى . . إنه قدرى وهناى وعشقى ومحبتى .

وفجأة امتلأت الكافتيريا بأصدقاء لحبيبى . . أخذوه منى . . فى الحـديث والمـرح ، وكأنه منذ مدة لم يقابلهم . . وأحسست بالحرج والضيق . . وهمست له إننى أريد الرحيل . . لقد رأيتك واطمأننت عليك .

قال وهـــو مازال يصخب : ستبقـين معى الليلة وفى الصبـاح سأوصلك إلى المحطة ـ برود نادر ـ للمحطة وليس إلى مصر . . إلى أمنا جميعاً .

ودارت العربات . . جميع العربات . . وأحسست أنى فى قافلة مطاردة هاربـة من الـدنيا أو من الجحيم . . إلى بلدة على مشـارف الزقازيق « محلة مرحوم » قرية صغيرة . . فى وسطها قصر أو فيلا تشبه

قلاع العصـور الـوسـطى . . قال لى : لقد اشتريت لك قصرا . . لتعيشى فيه بقية عمرك . . ولم أدر ماذا أقول . . إنه كاذب حقير . . لم يسمـع صوتى إلا ظهر اليوم نفسه . . وكاد أن ينسانى لولا أننى ذكرته بنفسى .

بقيت حبيسة حجرتى فى القصر أو الفيلا . . أمامى زجاجة بيرة وعلبـة سجائر ، أنظر من النافذة على حبيبى . . الذى لم يتغير . . يجلس فى حديقة القصر مع أصدقائه المخادعين الأنذال . . يشرب معهم المخدر . . يلعب معهم الكارت . . يتناول الحبوب المخدرة . .

يدمر نفسه . . لماذا يفعل ومعه كل هذه الثروة القادمة من الخارج ومعـه قلب شديد الحساسية شديد التعلق به . . يعيش اللحظة فى حجرة مغلقة . . ليس بها سوى نافذة تطل على حديقة المجون .

ماذا يريد أكثر من ذلك . . وطالت السهرة . . وظهر الحبيب الماجن ليقدم لى طبقا به عشاء قائلا : دقائق وسأكون معك . . يجب أن أربح ما خسرته . . لن يطول وقت .

ولم أدر بنفسى . . إلا وأنـا فى الفـراش والسـاعـة تدق الثـانية صباحاً . . عدة نجوم فى السماء . . تحدثنى حديثا يكدر القلب . . تصفنى بالبله والضعف .

إنــه حبيبى . . الـذى لم يتغـير منـذ عشر سنـوات . . نفس الـوسامة . . نفس البرود . . نفس الحب الذى أسعى به نحوه . . عشر سنـوات لم تقتـل الحب الضخم الـذى كان يكـبر كل يوم فى

غيابـه . . أنـا مجنـونـة عاشقة فى عصر الماديات والأحقاد والكراهية والمنفعة الكاملة .

وخـرجت على أطـراف أصـابعى . . لأجـد حبيبى نائما بجوار صديقـه الـذى عرفنى به ساعـة وصـولى إلى محطة الـوصول « عمر الصاوى » ماذا أفعل بنفسى . . أخذت نصف حبة منومة لتكملة الليل .

وفى الصبـاح تركت القصر والحـديقـة التى مازال على نبـاتاتها الخضراء أثـار المخدر والشراب والمجون الرجالى الذى لا يصلح مع رجـالٍ تركـوا الثلاثين أبحث عن عربة تاكسى أوخاصة تنقلنى إلى المحـطة . . وداعا يا حب ، وداعا يا محلة مرحوم . . وداعايا يا أعز الأحباب . . وداعا يا أدنى المخلوقات .

* * *

(٤)

بعد أكثر من ثلاثة أسابيع من اللقاء الأول . . وكنت عائدة لتوى من العمل مجهدة بائسة من الإرهاق . . وأكثر ، من الزملاء والزبائن الـذين نقـابلهم طوال يوم العمـل . . لا أجـد راحـة مع نفسى فى وحدتى ، ولا أجد حبا فى علاقتى مع الآخرين . . إنه مكتوب علىَّ الموت مبكرا حتى أرتاح ولكننى لا أملك حق الموت .

فى الثالثة ظهرا . . دق تليفونى وكان المتحدث « سامى وهدان » الحبيب السـابق الذى كنت قد تركته خلف ظهرى تماما بعد اللقاء الأول والسهرة غير الممتعة فى قصره فى محلة مرحوم . . والليلة التى انتهت حتى قبل أن تبدأ والفراش الخالى منه ، ورجوعى من الزقازيق بدون وداع .

قال سامى وهــدان : لا تقفـلى السكـة فى وجهى . . إننى أحبك . . ألا تعرفين أنك شقية وأنا شقى أكثر فى بعدك .

لم أتكلم . .

قال : متى سأراك . . لا أعـرف عنوانـك الجـديد . . هل تقابلينني وسط البلد ، سأراك فى محل الطائر الأزرق بعد ساعة . . هل تعرفينه . . إنه عند تقاطع سليمان وفؤاد .

قلت له : لا يمكننى الرفض . . هذا قدرى . . سأراك هناك بعد ساعة زمن .

فى الموعد المحدد . . كنت هناك على مائدة فارغة . . أمامى موائد منفصلة بعيدة . . امرأة زنجية تقرأ الكف لبعض زوار المحل القلة فى هذا الـوقت دخنت ثلاث سجـائـر . . حتى وصـل بنحـافتـه ، بغطرسته ، ولم يكن وحده ، كان معه صديقه عمر وصديق ثالث لم أره فى زيارتى الخاطفة للزقازيق وسمعت أثناء الحديث أنه ضابط النقطة هناك .

قال : لقد تأخرنا عليك . . كنا نبيع إحدى العربات التى أتيت بها من أوروبا ، وكان الرجل ـ يقصد المشترى ـ كثير الفصال والمكابرة .

عرفنى بصديقه الذى لم أره من قبل .

قال : أريد أن أقرأ كفى . . هل تسمحين . .

وطلب من النادل أن يأتينا بالمرأة الزنجية التى ترتدى رداء أبيض .

قالت المرأة فى بداية حديثها : كلنا من التراب . . قادمين منه . . ذاهبين إليه . . ولم أسمع شيئاً بعد ذلك . . أكره الغيبيات ولا أهتم بها . . أحسست بالحقد الشديد له . . يريدنى ويأتى بأصدقاء معه .

قال وهو يبتسم : إنك متكدرة . . هل نذهب إلى منزلك . .

قلت ببرود : لم لا ؟

كانت سهرة سخيفة . . رجل وامرأة وحديث لا طائل وراءه . . واختفى الحب تماماً فى هذا اللقاء . . وكأننى كنت أعرف . . أقابل غريبا . . لن تربطنى به صلة بعد الآن .

* * *

(٥)

وعرفت أننى غبية وسخيفة لأننى أحببت ذلك البعيد المجنون السكير الأحمق ووجدت نفسى على طريق الهزيمة والنسيان التام . . حتى لوكلمنى فى التليفون ، سأضع السماعة . . انتهى الحب ، انتهت المأساة .

مأساة حياتى . . مأساة شابة جعلت الحب لها نبراسا . . حتى فى زواجها القصير كانت تنتظر أن يتقدم الحبيب الأول . . أن يأخذها على حصانه الأبيض . . أويشدها إلى داخل سفينته . . أوهام وأكاذيب .

والقلب مشتعل بالنار . . ولا يعرف أحد . . وأسوأ الأشياء ألا يستطيع الإنسان أن يفصح عن مكنونه حتى مع أعز الأصدقاء . . هناك أشياء لا تقال أبداً وتموت مع وفاة الإنسان نفسه . . لذا قالوا الموت راحة أبدية .

حزينـة هذه الليلة . . مشـاكـل جديدة فى العمل ، وتمرد من الفتيات اللاتى يعملن تحت إمرتى . . يظهر أننى عجزت وأصبحت لا أعرف الحياة الجديدة فى عصور المماليك السابقين والجدد . . ألسنا مازلنا نعيش فى عصر المماليك ، مصر هى الأخرى مأساة . . مأساتها تشبه مأساتى . . إنها تنتظر الفارس ودائماً تخيب فى قدرها أو حظها . . القادم دوماً صغير أو عملاق أحمق ، وتضيع مصر وأضيع معها .

مصر هى الخيال وهى الهمة وهى النشاط ، ولكن كل الفرسان قادمـون لها بالاحبـاط ليس إلا . . فاشلة فى طريقها . . فاشلة فى ثقتها . . فاشلة فى حبها . . تتصور البعيد كأنه المنقذ ، وعندما يبدو المنقذ تتضح الصورة . . وأنه قزم أعرج محدود التفكير . . يصبغ شعره الأبيض . . ويلون وجهه . .

فتقفـل الأبـواب ، توصـدهـا تماما . . ولا حرية ولا رشفة ماء ولا كلمة ولا حب ولا حنين ولا ضحكة طفل . . وتعيش حياتها فى اكتئاب مستمر ، تفكر فى الانتحار . . كل لحظة بذاتها . . ولا يتم الانتحار . . ولكن تتم المأساة البشعة المستمرة .

وفى لحظة مجون مع نفسى وكأس نبيذ . . وشعلة صخب داخلى ودمعة خاصة مع أغنية قديمة من أيام الذكريات من أيام الحب المستحيل .

ويدق جرس الباب . . من يكون فى هذه الساعة المتأخرة . . إنه لابد الشيطان أولص أوسامى وهدان . . وأفتح الباب لأجده أمامى .

وأنسى تماماً كراهيتي له ، سامي . . حقدي . . إنك الروح الجديدة لكي أعيش ، أطير في السماء . . إنه منقذي ومبعثي إلى الحياة . . ها هو جاء الجديد . . ليس قزما ولا غبيا أو سخيفا . . إنما هو بوجهه المثلث ، بأنفه الضخمة . . بشاربه الكثيف ، بشعره المتوج بخصلات رمادية ـ تأثير الغربة ـ بابتسامة على أسنان بيضاء نظيفة . . إنه هو بقامته المتوسطة ، بنحافته الشديدة بردائه الرمادي . . بكرافتته السوداء . . بأصابعه المفرودة . . بحديثه المنغم إذا كان هناك حديث ، بصوته البطيء الذي ينزل داخل قلبي .

وجلس أمامي . . لا أجد حديثا . . وهو ينظر لي في هدوء . . يقوم ليأخذ وجهي بين يديه . . يقبلني على خدي . . بأسنان شرهة للحب وللجنس . . وأبعده عني . . ماذا تريد في هذه الساعة . . هل جننت . . أن تدق على امرأة مهجورة في هذه الساعة من الليل .

قال سامي : جئت لأقول لك وداعا . . أو سلاما ومحبة .

قلت : أصبحت لا أفهم في الليل ، ومع كأس النبيذ والوحشة والاكتئاب التي أصبحت أغصانا وأحراشا . . أريد فارسا معه سيف حاد لتمزيق تلك الأشواك وتقريب المسافات .

قال : أنا الفارس . . جئت لأقول : « محبة وعطاء إذا كنت تريدين » .

قلت : لا أفهم .

قال وهو يشدنى إلى جانبه : سأسافر إلى السويد الأسبوع القادم وسآخذك معى إلى هناك .

قلت فى فزع ودهشة : ولكننى علمت أنه لا عمل لك محدد هناك .

قال فى هدوء : ستذهبين معى . . وسترين على الطبيعة العمل المسند لى . . الشقة التى أسكن فيها .

إذا لم يعجبك الحال هناك . . لنترك استكهولم ونستقر هنا .

قلت : ماذا أفعل مع عملى والمحل الخرب الذى أصبح لا يبيع شيئاً يساوى . . لمن أتركه . . ؟

قال : خذى أجازة لمدة سنة أوستة أشهر . .

لن أتركك تفكرين كثيرا . . ستسافرين معى بعد أسبوع .

قلت فى دهشة : أسبوع . . لا أستطيع أن أدبر أمر نفسى .

قال : سأدبر أمرك من الليلة . . فى الصباح اذهبى لعملك . . وفكرى أن تغلقى المحل لمدة أشهر . . وابحثى عن حقيبة . . ضعى فيها ملابسك الضرورية .

قلت فى هلع : اعطينى فرصة للتفكير . . لا أستطيع السفر .

قال فى حدة وكأنه ينوى أن يضربنى أويشدنى من ذراعى إلى الأرض : لماذا تفكرين ؟

قلت فى هدوء : لأننى لا أعرفك جيدا ، الغربة أبعدت بيننا المسافات .

قال : لا أفهمك .

قلت : مشاعرك اختلفت أثناء غيابك عنى . . وأنا أيضا أصبحت لا أفهم نفسى . . أصابنى سوء الحظ والاكتئاب وأصبحت لا أصلح لك .

قال : اترك لى هذه المسائل . . هل تودين أن ترافقينى . . نعم أم لا . . .

قلت : لا أعرف حتى ماذا تفعل هناك .

قال : لقد قلت لك . . إننى أعمل فى مضاربات البورصة . . ولى محل صغير هناك . . فى العزبة أيضاً لا يساوى الكثير . ولكن ماذا نفعل ونحن غرباء فى بلدنا . . وأشد غربة فى بلاد الأجانب . . هل تقفين بجانبى حتى تمر المحنة . . ؟

قلت : اعطينى فرصة أن أسأل عنك . . لى ابن عم لأمى يعيش فى السويد .

قال : هل تسألين عنى أو تسألين قلبك .

احترت ماذا أقول . . إذا كانت الفرحة كلها جاءت لى دفعة واحدة . . هل أعود إلى وحدتى وشقائى ، وأرفض النعيم .

لن أتركه أبداً للغرباء . . والطريق الموحش .

سأسافر معه . . هذا قرارى . . هذا مصيرى . . والحياة ما هى إلا مغامرة .

ـ سنتزوج بمجرد وصولنا إلى هناك واطمئنانى على حياتك التى قد تعيشها هناك . .

لن أتركه أبدا . .

وعشت ليلة ساهرة العينين . . وهو بجوارى . . يأخذنى فى حضنه يؤكد ذلك بذراعيه . . بساقه . . وكأننى سأفر منه فى الصباح . . أو أول ما يبدأ القمر فى الاختفاء فقط منذ عشر سنوات . .

عشت ساهرة . . أشعر بالحنان لأول مرة فى حياتى منذ سنوات .

يا الله . . هل يمكن للحلم أن يصبح حقيقة . . والوهم يسفر عن كل هذا الحب والمتعة والحلاوة . . الحياة لا تدعو للانتحار أو الموت . . الحياة أجمل شىء يجب أن نحافظ عليه . . والحب ظله باق على الأرض .

كنت أقبل أصابعه وهو بجانبى . . نائم . . يسبح فى جوه الخاص . . الليلة تكفينى لمدة سنوات . . ليلة تمحو شقائى من السنوات الماضية .

فى الصباح كنت سعيدة وأنا أعد إفطاره بيدى . . أحيطه بعينىّ . . لا أريد أن أترك قطعة صغيرة من وجهه أو ذراعه أو أصابعه .

إنه الإله بالنسبة لى . . إنه الملكوت . . إنه الأسطورة . . إنه الحب . . لم يتركنى لمشاعرى وإنما أصر أن نغادر المنزل .

أذهب للمحـل وأتفق مع بعض مرؤوسى هل أغلق المحـل أو أتركه مفتوحا . . فى أيدى اللصوص . . والخبثاء . .

تركنى قبل الظهر . . للعودة إلى الزقازيق . . أخذ روحى معه وذهب . . وخشيت ألا أراه مرة ثانية . . كدت أبكى فى وداعه . . ولكننى تماسكت وهـو يأخـذنى فى حضنه . . يقبلنى فى خدى . . وكأنه يترك بصماته على جسدى ونفسى قبل أن يتركنى .

ودعته من النافذة وهو يغادرنى ، يركب عربته . . أخاف عليه من الطريق ومن القيادة . . ومن أهوائه ومن أصدقائه . . ومن مروره على « غرز » وسط الطريق إنه يدمر نفسه تماما بالخمر والمخدرات . . ولكن أحبه رغم مساوئه وبرغم بروده ورغم أهوائه الشديدة ونفسيته المتقلبة .

سأسـافـر معـه لا محالـة . . لن أطرق أى طريق آخر . . لن أفكر . . فقد اخترت .

مازلت أفكـر فى وجهـه ، فى عينيه ، فى ذراعيه . . فى ساقـه الممدودة علىَّ وكأنه يحرسنى حتى فى نومه أو فى غيبته . . لن أفكر أبداً فى زوجته أو ابنته الصغيرة القبيحة الشكل . .

لا أطيق بعاده أياما قليلة يدبر حاله . . أخاف من الغد ، ومن الأيام القـادمة ، يا ليتنى أموت الآن وأنا فى قمة الحب . . فى قمة النشـوة والأمـانى ، ومـع ذلـك أخـذت حبـة مهدئة قبل النوم . . لا أستـطيع من اليوم النـوم منفـردة وحبيبى بعيد عنى . . أشعـر

بالظمأ . . بعدم الاستقرار . . بالرعشة ، بالضعف ، من الخوف من المجهول .

أيام وأعيش بقربه إلى الأبد . . أمنيتى الوحيدة أن يكون يومى قبل يومه فلن أستطيع العيش يوما واحدا بعيدا عنه .

أريد معه أن أعوض أيامى البائسة السابقة . . أعيش بعينيه ، بشفتيه ، بتفكيره حتى ولو كان فاسداً .

لقد اخترت . .

* * *

(٦)

وجـاء يوم السفر . . لم أشعر بالأيام السابقة . . إغلاق المحل مؤقـتــا . . ترتيب أشيائى . . اختيار ملابسى الجــديدة . . وداع صديقاتى وأقاربى الباقين على قيد الحياة . . لم يكن الجميع واثقاً من نجاحى فى الخارج . . انقلبت صداقتهم وقرابتهم خوفا علىّ وعلى ذلك المجهول . . أننى أحب . . ألا تعرفون . . الحب هو الشىء المقدس الباقى لحياتنا واستمراريتنا فى تلك الغابة الحقيرة الملامح .

كان موعده معى عند العصر . . وكنت قد انتهيت من تصفيف شعرى وترتيب أشيائى وملابسى . . وصرت مستعدة تماماً . . لم يكن معى فى تلك المناسبة الخاصة السعيدة التى لا تحدث فى العمر سوى مرة واحدة . . إلا صديقتى ابتسام وهى التى ستغلق باب الشقة من بعدى . . تضمن أشيائى وشقتى ومحلى فى بُعْدِى عن القاهرة . . لم يكن هناك سوى دمعة واحدة راقدة فوق قلبى ، دمعة حب ووفاء . . دمعة حزن نبيل . . دمعة حب لا أستحقها .

كانت ابتسام معى منذ يومين . . لم تفارقنى الحبيبة الباقية لى على أرض الآباء والأجداد . . الكل تألموا وحزنوا ولكن يوم الوداع تناثروا تماماً وانشغلوا بأمور حياتهم . . وأولادهم الصغار . . كانت ابتسام مستعدة بعربتها الصغيرة أن ترافقنا حتى المطار . . تطمئن علىَّ . . تعود راضية خائفة حتى أرسل لها برقية أطمئنها على أمورنا معاً . .

هناك . . ابتسام لم تكن راضية فى قرارة نفسها على اختيارى ، ولكن تحت إصرارى وافقت وبدت راضية محبة فى الأيام الأخيرة . بعد أن عرفت أنه قد طلق قبل سفره إلى القاهرة زوجته الأجنبية . . وبد حراً . .

ولم يحضر فى الموعد المحدد كعادته . . تأخر ساعة . . والطائرة لها موعد محدد . . ولا تتأخر بسببنا .

وأخيراً . . وصل بضجيجه . . كان خلفه عربة أصدقاء مزدحمة حتى آخرها ، ولم يكن عندى سوى صديقه وحيدة . . ومع ذلك . . حتى لا تتأخر أكثر من هذا . . قبلتها سريعاً وأخذت حقيبتى ورجوتها أن تقفل الشقة على المهل . . وأن تطمئن على محابس الماء والغاز . . ولا ضرورة أن تودعنا حتى المطار . . معنا جمع من الأصدقاء . والطائرة ليس باق أمامها سوى ساعة . . والطريق إلى المطار . . لا يعلم أحد مدى ازدحامه أو فراغه فى هذا الوقت فى العاصمة المكدسة بالبشر والحيوانات والعربات .

وانفلت طائرة بحقيبتى . . لأجلس بجانبه . . أرجو له وصولاً هادئاً سريعاً إلى صالة المطار . . وعندما سألته لماذا تأخر . . يكون رده

ببساطة . . إنه جلس مع بعض أصدقائه في قهوة على الطريق ، فلم يشعروا بالوقت الذى مر سريعاً .

طارت بنا العربة . . وراءنا عربة أصدقائه فى شوارع القاهرة المزدحمة . . الليل دخل على المدينة مبكرا . . وكأنه كتب على أن أودع مدينتى فى الليل . . كان يقود بسرعة وبغير اتزان ، ولما نبهته . . لم يكن معى ، كان سارحا . . وشعرت بالخوف والإثم . . هل كنت متسرعة مندفعة . . لأننى قبلت السفر معه . . بدون مأذون ، بدون شهود . . وكان هذا قرارى . . أن أراه على طبيعته فى مدينته الأخرى البعيدة . . وهناك أقرر بنفسى الاستمرار أو العودة .

فى الـطريق . . والعـربـات خلفنا تجرى لاهثة . . قرر إيقاف العـربة فجأة ، لماذا . . لأنه يريد علبة سجائر . . قلت له : إننى معى سجائر مصرية تكفيه وتكفينى لمدة أسبوع قادم . . لكنه رفض بإصرار . . قلت له : سنجد سجائرك فى المطار . . ولكنه لم يهتم . . وهل أحد يمنع القدر . . أو أقوى منه .

ترك العربة وتحرك فى اتجاه الرصيف الآخر . . هناك كشك لبيع السجائر الأجنبية .

لم يكن هناك وقت للتفكير أو حتى منعه من النزول . . لا نملك أنفسنـا أو اللحـظات القادمة . . لا نملك شيئا بالمرة ولكننا نكذب ونتخيل ونصبـح ملوكـا للأكذوبة . . وننسى أنفسنا . . ويرتفع بنا الغرور حتى السحاب . .

كنت أرقبه وأنا أراه يشترى علبتين سجائر أجنبية ، ويترك للبائع باقى الخمسة جنيهات وهو يعود فى لهوجة المسافر الأحمق . . وفى الطريق عربات مسرعة .

ورفعت يدى إلى أعلى أنبهه إلى عربة قادمة مسرعة يركبها طائشان صغيران لا يزيدان عن الستة عشر ربيعاً .

ولحظة . . وثانية . . كان ملقى أمام العربة . . وجريت نحوه . . وصفارات عربات . . وأصدقاء يسدون الطريق أمامى .

كان هناك ملقى أمام العربة . . يبتسم . . يمد يده إلىَّ وكأنه يقول : ضمينى إليك . . كيف . . والدم يسيل من بين شفتيه . . ماذا أفعل يارب . . يا بشر . . يا أصدقاء . . يا أرض ، يا سماء ، يا نجوم ، ماذا أفعل مهما كان الثمن . . كنت أريد أن أفديه بروحى . . بحياتى .

وجاءت عربة إسعاف بعد دقائق . . ولكن لم يكن هناك فائدة ترجى . . لم يكلمنى كلمة واحدة . . فقط ابتسامة . . ويد مرفوعة إلى أعلى . . سريعاً ما تفقد توازنها . . فتعود إلى مرقدها .

* * *

أبنـــاء الليـــل

(١)

« عاطف المتواتى » . . شاب أسمر ، وديع المظهر . . وسيم ، نحيف ، بعينيه لمعة واتقاد تجذب إليه كل البشر ، صبية وكهولا ، نساء ورجالا . . قامته وشكله الذى خلق عليه تجعل منه فنانا عظيما أو شخصية مرموقة فى أى مجال . . أو ابن موت كما كان يقال عنه وهو مازال صبيا . . وجه نادر أن يقابله أحد ، وجه مميز أخاذ .

ولد عاطف فى درب من أحد دروب حى القيسارية المزدحمة بالبشر الكادحين والمخمورين فى نهاية الليل أما فى البارات الرخيصة أو البوظات الشعبية . . التى يتقيأ من يدخلونها ما يشربونه قبل مغادرة المكان . . عمل دؤوب طوال اليوم ، والليل فى الخمارات والبوظات . . عرف عن حى القيسارية سوء التنظيم ، والمجارى الطافحة والبيوت الواطئة التى يسكنها عدد من البشر . . الحياة تبدو بسيطة ولكنها معقدة . . تدعو للرثاء والشفقة ، وتدعو أيضاً لخفة

العقل والحياة لليوم ذاته . . لا غد يفكرون فيه ولا ماض يفتخرون به . .

ولـد عاطف فى هذا المستنقـع فى نصف نوفمـبر من عام ألف وتسعمائة خمسة وخمسين فى عصر كان يمجد بل يؤله عبد الناصر حتى فى التماثيل حتى فى أحـاديث الصغـار والكبار الذين كاوا يجلسون يحملقون فى صورة عبد الناصر أثناء خطاباته المتكررة التى كانت بمثابة العيد الأكبر أما العيد الأصغر فكانوا عندما يسمعون أم كلثوم فى حفلة الخميس من أول كل شهر ، كان هناك أيضاً آخرون مثل عبد الحليم وأفلام ليلى مراد التى أختفت فجأة . . ولكن لم يكونوا فى شهرة وعظمة وأفلام ليلى مراد التى أختفت فجأة . . ولكن لم يكونوا فى شهرة ومجد عبد الناصر وأم كلثوم . . كان المجد لهم أو العظمة لهما وحدهما فى هذا الوقت . .

ولد عاطف فى هذا الجو الصعيدى الذى كان يحب عبد الناصر لمنبتـه القـريب من نفس المكـان . . يشعـرون به . . يفخـرون بالصعيدى العملاق الصادق القوى الأسمر الغشوم إذا غضب . . الرقيق إذا أحب . . الذى كان يريد الكثير . . ولم يستطع لأسباب كان يجب أن يعقلها ويدرجها جيداً من قوى خارجية وداخلية . .

ولـد عاطـف من أب يعمل عتالاً فى السكة الحديد القريبة من الحى حتى ساعة متأخرة فى الليل وعندما يعود . . يذهب مباشرة إلى البـوظـة . . وكـانت أمه « رفيقه » فى هذا الوقت تمر بظروف صعبة للغـاية . . التهاب رئوى يكاد يقتلها . . ومع ذلك كانت تعمل فى

بعض البيوت المتوسطة فى حى الوليدية فى الأيام التى يتقشع فيها المرض وتبتعد الكحة العنيفة اللعينة عن صدرها . . وتربط عاطف الطفل من قدميه الصغيرتين فى أرجل السرير الحديد . . حتى تعود . . بعد توصية جارة قريبة من حجرتها على السطح أن تعطيه طعامه فى أوقاتها . . أو البطاطس المهروسة بقطرات الزيت . . وكانت الجارة وتدعى « أم وليم » . . تحسن عليه أحيانا فترضعه من ثديها . . حيث أن ابنها وليم آخر أولادها يسبق عاطف بشهرين فى الولادة . . ولاحظت أنجيل أم وليم خاصة أن الطفل الذى لم يبلغ بعد السنتين له عينان تبرقان باستمرار . . تبرقان بخوف وذعر ممتزجين خاصة إذا ما شاهد غريباً قادماً عليه . . وقالت لزوجها أبو وليم الذى يعمل محضراً فى محكمة أسيوط أن الولد . . له عيون أصبحت تحب الصغير أكثر مما تحب وليم آخر أولادها . . أنها تخاف عليه . . لدرجة الخوف من الموت نفسه . . وقالت لزوجها . . لو أن الموت يطل عليه مبكراً وقبل أمه . . لارتاح وأراح هذا الطفل . . لقد رأيت مناما مخيفا تحول فيه الصغير إلى وحش كأسد . . لا يحتمله البشر أو الوحوش الأخرى فيتكتلون عليه . . ثم يأتون عليه كل واحد بسكينة ثم يحرقونه حتى لا يبقى منه إلا الرماد . .

قال زوجها وهو يسخر : أنها أصبحت تخرف كثيراً فى الآونة الأخيرة ولولا دينهم لتزوج عليها أخرى .

. .

قالت إنجيل لزوجها : بعد خمسة أولاد . . أكبرهم سيتخرج هذه السنة من المدرسة الصناعية . . إننى أحب عاطف وأشعر بدمائه

تجرى فى دمائى . . وصراخه وهو مربوط من قدميه فى أرجل السرير كأنها طعنات فى قلبى . . إنه طفلى لو تعلم يا بطرس . . ألم أرضعه بعد ولادته . . بعدما منعوا أمه من إرضاعه حتى لا ينزل المرض أو السم فى معدة الصغير . .

قال بطرس : لقد أصبح لك ولدان صغيران بعد انقطاع الخلفة دام سبع سنوات . . فلك أن تفرحى . . وتملئى الدنيا ضجيجاً . .

قالت إنجيل : إننى أخاف على عاطف . إن عينيه تبرقان ببريق لا أفهمه عندما أقترب منه أو عندما أودعه . . إنه يشب سريعا . . ينمو بشكل لم أره فى أطفالى أو أطفال آخرين . . سأذهب به يوم الأحد القادم إلى كنيسة الجبل لأسأل القسيس . . لعله يساعدنى . ولأشعل له شمعة تنفعه فى أيامه المقبلة وتمنع عنه أذى البشر .

لم يرد عليها بطرس . . لأنه كان تركها منذ لحظة للأوهام والأحلام والكوابيس التى باتت تطاردها منذ زمن ، وفى داخله فرحة مضيئة أن امرأته أصبحت عكرة المزاج مشغولة بذاتها . . لا تطارده فى حياته أو معاشه أو فى الإشاعات التى كانت تربطه بعلاقات غير سوية مع نساء صغيرات مطلقات يقصدن المحاكم لأجل انهاء مشاكلهن المضنية التى تستغرق عقولهن أو نفوسهن الضعيفة الهشة . .

* * *

(٢)

ماتت رفيقة . . وهى لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين من عمرها . .

زوجها أهلها الذين يستوطنون قرية قريبة من أسيوط لكثرة عيالهم ولفقرهم المدقع من عتال فوق الأربعين « كسيب » ولكن يضيع مكسبه على الخمر والبوظة . . ولد معتوها كبيرا ومع ذلك فرحوا بالمهر البسيط . . وأنه لن يكلفهم شيئاً . . فحجرته على السطح جاهزة بكل شيء ، وذلك بعد وفاة أمه العجوز التى كانت تتحمله وتؤدى له كل متطلباته الضرورية . . ومع ذلك عندما طلب من زوجته أن تعمل كخادمة أو غسالة فى بيوت متوسطى القوم لم ترفض . . ولم يؤذ ذلك مشاعر أهلها الفقراء الذين ارتاحوا بتزويجها رغم وسامتها الظاهرة للعين البسيطة .

ماتت رفيقة وهى تغسل على طشت الغسيل آخر فم لعائلة يبلغ

تعدادها سبعة أنفس . . تصعد الدرجات لتنشر الغسيل فوق السطح تحت حرارة شمس أغسطس ثم تعود للبخار والغاز الذى يخنق الأنفاس . . لم تكن قد أكلت إفطارها بعد . . فكانت تجمعه فى كيسها الدمور لابنها عاطف الذى قارب السابعة . . يشاكس أولاد الحارة . . ويشاكس أولاد الجيرة ، ويسرق الحلوى من الأولاد بعد أن يضربهم ويهينهم . . فقد ولد قوياً عنيفاً بالرغم من الظروف المتاحة . وضعت لابنها فى الكيس الرغيف البلدى والبيضة المسلوقة وحبات الزيتون وقطعة الجبن البيضاء . .

وفجأة مالت برأسها على الطشت . . وعندما نادتها سيدتها زوجة مهندس الإسكان فى المديرية . . لم ترد عليها . . وجدتها منكفئة على وجهها فى وسط الصالون والملابس الملونة . . لا تتحرك . . رغاوى بيضاء تخرج من فمها . . وعندما هزتها لم تنطق ، وعندما أرجعتها لمكانها فوق الكرسى الخشبى الواطىء المتهالك . . عادت تميل برأسها إلى طشت الغسيل . . انزعجت المرأة صاحبة المسكن « عزيزة الخلعى » فدقت لزوجها تليفونا فى مكتب مدير الإسكان : أريد فوراً المهندس محمود مندور . . فرد صوت المدير بغلظة : محمود فى مأمورية خاصة بالجيش فى منقباد . .

فصرخت المرأة بعلو صوتها . . فازدحم البيت بالجارات الممتلئات والأولاد الصغار . .

وكان موعد عودة ابنتيها الصغيرتين من المدرسة « مايسة وفايقة » . .

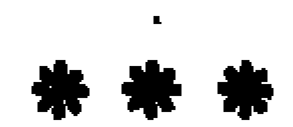
وانبرت جارة متماسكة نحيفة ممصوصة قائلة : لقد ماتت المرأة . . لابد من إبلاغ الشرطة . . وصعد طبيب يسكن فى البيت المجاور . . ليؤكد النبأ . . المرأة توفت . .

وفى سكون تام . . عندما عاد الزوج من سكرته من البوظة وجد امرأته راقدة فى الفراش مغطاة بملاءة والجارات يولولن بصوت عالٍ . . والطفل عاطف يبكى فى مكانه المعروف أسفل السرير الحديدى يريد أن يربط قدميه من جديد ولا تموت أمه فى بيوت الغرباء . . لقد شعر بها فى السنوات الأخيرة وأحب ضعفها ورقتها وامتثالها لزوجها ومتطلباته الجنسية الشديدة وهى المتعبة المريضة المقتولة طوال يومها . . لا تفطر . . ولا تجد غذاء يعينها على الحياة وأهلها تركوها تماماً لوغد عجوز أحمق يجد متعته فى الخمر الفاسدة والبوظة العطنة . .

ومع ذلك ترضى ابنها وتعطيه أكثر مما يطلب حتى لا يسرق الآخرين . . ولا يتسول الحلوى من عند محل الحلوى القريب . . ويسرق عشش الجيران الطيبين لأجل بيضة واحدة . . ومع ذلك يتسترون عليه من أجل رقة أمه ومحنة أبيه مع الخمر . . والطفل صارخ قوى يستخدم كلمات لا يقوى الآخرون على استخدامها بل تحمر وجوههم عند سماعها . . ويصارع الأطفال الذين فى مثل عمره . أو أكبر منه بسنوات ويهرب من المدرسة الإلزامية بحجة قسوة الشيوخ .

ويميل إلى أم وليم ميلا غريبا . . والتى تعطيه كل شىء خوفا من

عَينيه المتقـدتـين القـاسيتين بالرغم من أن زوجها الذى أصبح على المعاش ينهرها كل مرة تدلل الولد ومع ذلك فهى ضعيفة مع الوجه الـوسيم الجـذاب المتـوحش الـذى تشتعـل عيناه بنار تود أن تعرف مبعثها . . الله . . أو الشيطان . .



(٣)

فى ليلة باردة كئيبة . . حيث ينام أهل أسيوط بعد العشاء . . لا تبقى إلا قلة من خمارات أو بوظات فى حارات القيسارية . . فاتحة أبوابها للمحرومين الضائعين الفقراء الذين لا يستطيعون أخذ شرابهم لبيوتهم . . يشربون وسط صحبة من الأهل والأصدقاء ، وكان المنواتى كعادته بعد العمل فى نقل حقائب السادة فى محطة السكة الحديد . . يذهب إلى بوظة شعبان أبو المجاديف . . لا يسأل فى ابنه عاطف الصغير ذى السبع سنوات فهو فى عناية جارتهم إنجيل بعد أن شبع لعبا فى الحارة وتوسيخا لملابسه وضرب وأهانة بقية الأولاد . . ويسرق ما يحملونه أو مايلعبون به .

فى هذه الليلة البارة الكئيبة . . وهو جالس على حصير بال وسط المخمورين والصعاليك يشرب قصعة البوظة الثانية ، بعفريتة العمل الزرقاء التى لا يجد الوقت لغسلها . . أو ترتيب الحجرة . . لولا أم وليم ما تحمل ذلك الفاجر والنائمون يشكون له ابنه الصغير المولود فى

ليلة قتل فيها الأخ أخاه . . المعجون بماء الشياطين . . يجلس المنواتى فى كآبة واضحة ، لم يحلق ذقنه منذ الجمعة الماضية . . يمز بعد البوظة التى تقلب معدته بطبق من الفول المغلى فى الشطة والخل . . والتى تقدمها له « سنية » المرأة التى تجلس أمام البوظة ، تبيع فى الصباح على قفص من جريد الفول النابت والفجل والكرات . . وفى الليل تبيع مزات البارات والبوظات القريبة من سودانى مملح . . من طماطم وخس . . من عصافير صغيرة محمرة أو سجق لا تطاق رائحته . .

فى هذه الليلة فاتحه شعبان أبو المجاديف فى أمر زواجه بعد ثلاثة شهور من وفاة زوجته . . من سنية بائعة الفجل فى الصباح والمزات فى الليل . . سنية فى الخامسة والثلاثين ولها ولدان يتعلمان فى المدارس الأول فى الرابعة عشرة والثانى فى العاشرة . . توفى زوجها منذ عدة سنوات ومازالت تحمل الكثير من الجمال وأيضاً صاحبة عمل . . فهى تكسب أكثر من ثلاثة جنيهات فى اليوم الواحد فى ذلك الزمن البعيد . . أكثر مما يكسب هو فى اليوم الواحد . . مشكلتها الوحيدة أنها لا تجد سكنا بعد أن هدم البيت القديم الذى تسكن فيه . . فهى تعيش أحيانا عند إحدى جاراتها . . أما أولادها . . فكل واحد يعيش عند عم له . .

وقال المنواتى وهو مخمور يائس : ولكن الحجرة لا تستطيع أن تأوى كل هذا الجيش . .

قال شعبان بسرعة : تستطيع بناء حجرة أخرى من الخشب

والصاج بجوار حجرتك . . وسنية لن تكلفك شيئا فى بناء الحجرة الجديدة . . وعلى الأقل تجد امرأة ترعى ابنك الشيطان الصغير . . وتجد لقمة ساخنة وهدمة نظيفة ، وفوق ذلك . . الرجل منا لا يستطيع أن يبتعد عن النساء .

وقال الرجل مذعورا : ولكن ماذا يقول الجيران وهى امرأة تعمل فى البارات . .

قال شعبان مؤكدا : فى حالة زواجكما . . تمتنع عن العمل فى الليل . . ويكفيها الصباح ، أما الليل فيستطيع ابناها أن يتناوبا العمل بدلا منها . . هل يرضيك هذا . . هل نتفق الآن . .

فى اليوم التالى وجد عاطف نجارين ونقاشا . . يعملان بهمة فى إضافة حجرة جديدة إلى حجرتهم المبنية من الطوب . . وأم وليم تبتسم فى وجه الطفل وتقدم الشاى للعمال .

شعر الطفل بغصة وخوف يمتلك قلبه ولم يفهم . . هل سيسكن أحد معنا بعد غياب أمه . وفى ذلك اليوم الرهيب وهى جالسة على طشت الغسيل لا يرحمها هؤلاء الأغنياء المغرورون .

ولم يتم أسبوع . . حتى أصبح له أخوان جديدان مجدى وسمير . . أطول منه وأقوى منه . . وسيدة رابعة . . سمراء الوجه . . وانتقل من حجرة أبيه لينام بجانب الولد الأصغر سمير . .

فى الأيام الأولى شعر بالغربة والوحشة ومع ذلك وجد من يقدم له الأكل الساخن ـ يعطيه الحلوى وخاصة الولدين الصغيرين وهما

يعودان من المدرسة وكان سمير يأخذه أحيانا معه إلى البارات الليلية والبوظات الحقيرة حيث يبيعون أطباق المزات التى تعدها الخالة سنية والتى رفض رفضا قاطعا أن يقول لها « أما » أبدا . . مكتفيا بمناداة أم وليم . . بالأم بعد وفاة أمه الحقيقة .

شب الأولاد الثلاثة معا . . وتحمل مجدى وسمير كذب الصغير ومشاجراته الكثيرة فى الحارة وسرقة ملابسهما وبيعها فى سوق الكانتو القريب من جامع الغريب . . ورفضه أن يتعلم فى المدارس . . وهروبه المستمر . . وكذلك عدم رضاه عن تعلم أى حرفة . . يذهب به الأب إلى أصدقائه من أصحاب الورش القريبة . . يرجوهم أن يتحملوا الولد ويعلموه ولو ببطء . . ولو يعطوه أجرا أقل من زملائه . .

ومع ذلك كان عاطف متمردا شقيا . . يهرب من كل ورشة يعمل بها حتى انتهى به المطاف عند صاحب ورشة « دوكو » . . رجل مسن لم ينجب . . عامل عاطف بكل مودة وحب . . لعلمه أنه يتيم الأم . وكان يرسله إلى البيت كل يوم . . ليأتى له بالغداء . . ولم يكن ليرضى إلا أن يتناول الصبى غداءه معه يومياً . . ثم يذهب الصبى ليأتى بالشاى من القهوة القريبة . . أما عن عمله . . فلم يتقن شيئاً . . ومع ذلك لم يقطع الرجل المسن مصروفه عنه أبداً . . فهو يشعر أنه وجد ابنا فى آخر الزمن . . ذلك الصبى الشقى ذو الوجه الوسيم الأسمر والعينين المتقدتين دوما . . فكان يتغاضى عن شقاوته ومضايقاته للأولاد والأسطوات الذين يعملون تحت إمرته . . أو صبية الورش القريبة ، وكم تمنى لو أنه يتبناه هو وزوجته العجوز . . لولا

خوفه من بطش الولد وماضيه السيىء فى العمل بالورش . . فكان يكتفى بأنه ونيس له فى جلسته داخل الورشة . . يرسله لشراء بعض لوازم البيت أوبعض متطلبات العمل فى الورشة . . كان الشيخ محسن الفرجانى شديد العطف عليه فكان يأتى له بكسوة الشتاء والصيف فى أوقاتها . .

وكان يأخذه أحيانا إلى البيت ليؤنس وحدته ووحدة زوجته العجوز المريضة . . التى تتحرك بصعوبة فى البيت لتغطية بعض أمور الحياة تساعدها فتاة صغيرة فلاحة قادمة من قرية قريبة للخدمة تدعى فتحية أكبر منه بعدة سنوات . .

لم يتركها عاطف تمر من يديه إذا جاءته الفرصة للاختلاء بها . . فكان يمارس معها لعبة الحب والفتاة معجبة بشكله . . بوسامته التى أصبحت واضحة وكذلك أسلوبه فى الحديث . . الذى كان يجيده مثل أى مراهق حتى أصبحت فتحية هى البادئة بالمشاكسة والإعلان عن مفاتنها . . وخاصة عند نوم العجوز فى حجرتها . . متأثرة من مرضها الطويل وسمنتها الزائدة .

***

(٤)

عاش عاطف أفضل فترات حياته فى محل دوكو السيارات الذى يملكه الشيخ محسن الفرجانى . يجد الحنان منه ومن زوجته السمينة المريضة والخادم الريفية فتحية التى تذوب شوقا عند رؤيته . . كان كل شىء جميلا بالنسبة له فى هذه الفترة . . خاصة أن الابن الأكبر لزوجة الأب مجدى ذهب يتعلم فى القاهرة . . والثانى يحاول الحصول على التجارة المتوسطة من إحدى مدارس التجارة بأسيوط بصعوبة ، وكان صديقه فى نفس الوقت ، وإن كانت لم تنقطع خدمتها لزبائن الخمارات والبوظات التى أصبحت قليلة مع تغير الزمن . ومع ذلك حدثت الفضيحة المدوية . . التى زلزلت أسرة المنواتى وعادت الكراهية التى كانت مختبئة طيلة السنين الماضية فى اتجاه الشقى عاطف الذى لم يترك شيئا أمامه إلا سرقه أو أحدا إلا أهانه .

ولم يكن هناك دليل مؤكد لكل هذه الكراهية التى يتنفسها ذلك الصبى أو المراهق .

حتى إنجيل أم وليم التى أخـذته من يده لزيارة مقابر الشيوخ وكنائس أسيوط المشهورة حتى قس الجبل الذى يعترف له البشر بذنوبهم . .

كانت « إنجيل » حمايته فى البيت الآيل للسقوط والسطح الممتلىء بالبشر السـاكنـين ودورات المياه الـطافحـة باستمـرار وعمل النساء والصبية فى البارات والبوظات . . وعند كل إشارة إلى فضيحة جديدة . .

كان يشد عاطف الصبى من معصميه وقدميه بأربطة قوية تؤكد صلابتها بمسامير طويلة مغروسة فى جدار سطح المنزل القديم الشابان ابن زوجة الأب قبل سفر أكبرهما إلى القاهرة . . ويضرب وهو عار على ظهره . . ثم يتركونه للشمس الحارة بعد دهان ظهره وصدره بالعسل الأســود . . لتسقط الحشرات المؤذية عليه ،، ولم يكن له من شافـع إلا إنجيل الـطيبـة أو ابنهـا الصغـير وليم . . الذين كانوا يأوونه فى حجرتهم الواسعة إذا ما هبط الليل . . يغسلون جسده . . ويجعلونه يذوق الأكل بعد حرمان يوم ، وذلك لأنه سرق شيئاً من أحد محلات الشارع الضيق أو امتنع عن الذهاب إلى البارات لخدمة زبائن آخر الليل . . ليساعد أباه الملتاث العقل الذى فقد وظيفته وكاد يفقد عقله تمامـا . . تاركـا كل الحمل لأولاد زوجة الأب سنية اللئيمة كما كان يسميها عاطف التى لم تجد مكانا تأوى إليه هى وأولادها بعد انهيار منزلهم . .

فكان إن حلت مكان أمه الرحيمة رفيقة التى ماتت على طشت غسيل فى بيوت السادة . .

لن ينسى أبداً هذا المنظر وهم ينقلونها على عربة كارو إلى حجرتها الموحشة انتظارا لجمع مصاريف الجنازة والغسل من الأبناء الكرام . .

وكان أن اهتدت إنجيل بسمعتها الحسنة وكذلك الأب قبل فقد عقله إلى عمله فى الورشة التى يملكها محسن الفرجانى بعد ما رفضت الكثير من الورش والمخازن العمل بها . . وكان أن أصبح بمثابة الابن للفرجانى وزوجته العجوز . . ملبياً طلباتها حتى ظهرت الريفية فتحية التى كانت متعطشة للمدينة وأيضاً للحب حتى وقعت فى أسر وسامة عاطف وحديثه الحلو . . ففقدت نفسها معه تماما . . حتى أشار إليها فى يوم بأن تسرق جهاز التليفزيون الصغير . . تسلية الأسرة الصغيرة الوحيدة . . وكذلك حلى الزوجة السمينة أثناء نومها . .

وهرب عاطف مع فتحية إلى سوهاج ليبيعا الأشياء . . ثم يعود وحده إلى أسيوط بعد أن أكد لها أنه سيذهب إلى قريتها . . يطلب يدها للزواج متى ماتت الفضيحة . فلما اكتشفت السرقة . . طرده محسن الفرجانى وحاول أن يجد الأشياء التى سرقت ومع ذلك لم يستطع البوليس أن يكتشف شيئاً . .

فالبنت حبا فى عاطف ومستقبله أدانت نفسها ولم تشر لعاطف من قريب أو بعيد . . وكان أن حكم عليها بثلاث سنوات سجن فى أسيوط . . وكان أول من يزورها فى الأعياد والمواسم عاطف . . ولم يتخل عنها أبدا . . حتى بعدما خرجت من السجن . .

ذاق عاطف طعم المال مبكرا وظهرت عليه الملابس الأنيقة التى كان يهواها يساعده فى ذلك رشاقة جسمه . . بل كان يفضل أن يحلق

شعر رأسه مغايرا لموضة الشباب عند أحسن حلاق فى المدينة . . وزاد نشاطه بمفرده وكان أول منزل أراد أن ينزل به عقوبة الألم والكراهية التى تعشش داخل صدره من يوم وفاة أمه . . هو منزل مدير الإسكان فى المدينة والذى كان منذ عدة سنوات مهندس قطاع . والذى ماتت أمه عندهم من وطأة الحر والغسيل والقسوة واللقمة الرديئة وأرسلوها على عربة كارو حتى بدون حسابها القديم أو بدون شىء يساعد على دفنها لولا الكرام من أهل الدرب وإنجيل المرأة التى لن ينساها أبداً . . حتى بعد ما رحلت بعد أزمة ربو عنيفة . .

انقطع عن زيارة حجرات السطح بعد ذلك . . فلا يوجد له أحد هناك . .

حتى أبوه الذى فقد عقله ذهبت به زوجته الجديدة إلى أحد ملاجىء العجزة بالمجان . . جالسا طوال النهار فى حديقة جرداء بدون نباتات . . أو ملقى بجانب أحد حوائط الملجأ المتساقط بياضها . . وكان دوما يزور أبوه الذى أصبح لا يعرفه . . تاركا بعض المال لعمال الملجأ القتلة .

كانت ضربته الكبرى بعدما راقب بيت مدير الإسكان الذى عرف عنه فى الفترة الأخيرة . . كثرة الرشاوى وسوء استغلاله لسلطاته وخاصة فى أمور الهدم والبناء . . حتى كان كل سكان المنطقة يتحدثون عنه بحرية إلا المسئولين . . وانتهز فرصة خروجه فى الصباح . . وخروج ابنتيه إلى الأسواق . . أما المرأة زوجة رب الدار فكانت غائبة تؤدى واجب العزاء فى القاهرة . .

ثم دخل الفيلا الواقعة على نهر النيل والتى تحيطها حديقة ذات أشجار عالية . . ونهب كل ما يمكنه من الفيلا من أدوات كهربائية خفيفة ، وكذلك النقود التى كانوا يحتفظون بها ببساطة فى دولاب الملابس وكذلك حلى المرأة الغائبة . .

واحتار البوليس كثيرا . . واختفى عاطف ليبيع كل شىء فى سوهاج عند صديق ، ولما قال له الصديق . . أن بعضها يجب أن يجد طريقه إلى القاهرة . . لم يتأخر ونزل القاهرة ولم يعد إلى أسيوط . . إلا ليتزوج فتحية بعد خروجها من السجن ولتبقى فى قريتها فى انتظاره مزودة بكل ما تحتاج له المرأة من ملابس ونقود . . فهو كما قال لها يعمل الآن فى القاهرة فى شركة كبيرة تعمل بالتجارة والاستيراد . . وكانت المرة الأخيرة التى تراه فيها فتحية . . حقيقة كان يرسل لها أول كل شهر أكثر مما يكفيها من متطلبات الحياة والمعيشة . وعندما أرسلت فى يوم تطلب الطلاق لهجرانه لها كما أورى المقربون إليها . . لم يتأخر . . أرسل لها الورقة مع مبلغ كبير من المال أكثر مما تحتاجه . .

وفى القاهرة . . اتسع نشاطه وأصبح يسكن فى شقة مفروشة . . وحيدا تماماً إلا من تخطيطاته المقبلة . . عنده عربة صغيرة تساعده فى نقل مسروقات بيوت أو قصور الأغنياء وخاصة فى فترة عصر الانفتاح . . وظهور الأموال المكدسة التى كانت مختبئة فى البيوت أو عادت بعد إلغاء الحراسات . .

***

(٥)

وجـد لنفسـه شقة للإيجار فى شارع الخرنفش . . القريب من الجمالية . . حيث يحب السكان الأصليين الشعبيين وبدائيتهم . . ويـدأ يلتقى مع رواد قهـوة النعيم الذين أحبوه لكرمه وأناقته وأيضاً للمعة العين وحديثه المتقد فى كل المواضيع . . فهو بذكائه الفطرى وتعليمـه المحـدود . . كان يستمـع للنـاس جيداً ويعـرف ما يكفى للحديث الشيق . .

عرف فى القهوة ذاتها الكثير من مومسات آخر الليل اللاتى يقبلن العيش وخدمة البيت من أجل هدمة نظيفة وغذاء شهى . . وجنيهات فى نهاية المدة . .

وكانت « سلوان » إحداهن عرفها ولم يهتم بها فى البداية حيث كانت قبله خليلة لصاحب ورشة لصناعة المشغولات الذهبية فى شارع مكسر الخشب . . أحـد أمـاكن اليهـود السـابقة . . وقبل رحيلهم

بالجملة . . عن مصر ولما عرفت زوجته وأثارت الدنيا حوله . . اضطر لتركها ـ وكانت سلوان تعيش فى الورشة بعد غلقها . . ورحيل الأولاد الذين يجيدون صياغة الحلى . . يصعدون الدرجات العليا إلى الورشة القريبة من قلاوون وبرقوق . . كانت تكنس له الورشة وتمسحها وتغادرها قبل قدوم الأولاد فى الصباح ، أما أيام الأحاد فكانت تبقى فى الفراش ناعمة . . تنتظر قدومه . . وتعيش معه حتى أذان الفجر . . التقت عيونهم فى قهوة النعيم ، ولكنه كان مشغولا عنها بما هو أهم . . ولكن بعدما انفض رواد المقهى . . وذهاب أصدقائه القاهريين الجدد أصحاب ورش النسيج والجلود والعطور . . شباب صغير فى مثل عمره ورثوا عن آبائهم بضاعة ضخمة ومحلات واسعة . . يديرونها بطريقة « عش اليوم ومت الغد » . . فكانوا يتبارون فى شراء العربات الجديدة . . وفى معرفة الجنيات المومسات . . فى شراء أفضل أصناف المخدر الموجود فى الباطلية . . ولا يخجلون فيشربون القليل منها على القهوة . . ثم يصعدون إلى ورشهم أو بيوتهم لتكملة السهرات التى كان من أهم مميزاتها زجاجات الويسكى المهربة من المطار ومزة عم طرطور صاحب محل الكبدة والمخ فى درب سعادة . . وكان غالبا ما يرفض عاطف هذه السهرات المسكرة التى تؤدى بالعقل سريعا حيث يتحدث الأصحاب عن ماضيهم فقط . . حيث لا مستقبل ينتظرونه ـ الآن فى حلكة الظروف المتردية . . وهو ماضيه مظلم . . من عرى تحت الشمس . . من جلد بسوط رفيع . . من سير فى الليل بسلة يبيع بضاعة فاسدة على البوظات والبارات الواطئة . .

بعـد ذهـاب الأصـدقـاء . . وتبرمهم لأنه يرفض دعواتهم . . والمقهى يكاد يفرغ إلا من قلة من أولاد الضلال . . وسلوان تجلس بعينيهـا المكحـولتـين وردائهـا القصير الأحمر الضيق من عند البطن المنقوش فوق الركبتين . .

تنـظر له بتأمل وحلم منذ بداية السهرة . . عرضت يومها عن الـذهاب مع الكثيرين عندما رأت وسامته وأناقته المرسومة بدقة . . وكذلك غربته عن المنطقة . . وبعد آخر نرجيلة ودفع الحساب . .

الفجر على الأبواب . . شيوخ الجوامع القريبة بدأوا يظهرون فى الحارات الضيقة . . ينادون على بعضهم البعض بتحية الصباح الندى . .

عرج عاطف من خان الخليلى إلى بداية الخرنفش . . الشوارع هادئـة حالمـة تسكنهـا الجـوامـع الأثـرية الرائعة التى تدخل القلب مبـاشرة . . والكـون بدأ يغـير ألـوانـه والبشر ليس لهم وجـود فى الشــوارع . . تركـوا فضـلاتهم فقط أمـام المحـلات ولكن لا روح ولا حس لهم . . أحس بدبيب حذاء المرأة تسير خلفه على الحجارة الأسفلتية حتى شعـر أنـه لابد أن يتراجع ويساندها فى حركتها . . يسندها بذراعيه ، يلتف به حول خصرها . . ومع ذلك تماسك وأبطأ خطواته حتى تلحقه على ناصية المعز وشارع الخرنفش . .

قالت : غريبـة . . هل تسكن هذه المنطقة . . كنت أتصورك أحد البهوات القادمين من الخارج للفرجة علينا وعلى آثار المنطقة . .

قال : هل سرت خلفى كل هذه المدة . .

قالت فى دلال : أراقبك منذ مدة ، وأنت غير مهتم بى . .

وضع يده على كتفها وشدها إليه فى انحناءة ضيقة بين الآثار . . واضعا شفتيه على شفتيها وأصابعه تعبث داخل ردائها الضيق بعنف . .

قالت : هل جننت ؟

قال : أردت أن أقول لك أننى لست غنياً فقط ولكنك لن تعرفى من قبل أحدا مثلى . .

قالت : ولكن الناس قد يستيقظون فى مثل هذه الساعة . .

لم يرد عليها . . وسار فى طريقه تتبعه مثل كلب إلى بيت قديم من دورين . .

صعدت خلفه وهى تلهث فى الظلمة . . وقبل أن يفتح الشقة بمفتاحه : قالت : لا أعرف ما الذى يربطنى بك . . واقترب منها ثانية حتى هرعت منه إلى مكان حبها الجديد الذى لم تكن تتوقعه أبدا . .

بيت قديم . . وأثاث غير مرتب . . وأشياء كثيرة واضح أنها مسروقة حتى قالت بذعر : هل تسرق بيوت الناس . . ووضع شفتيه على شفتيها ويداه تخلعان عنها ثيابها ، ولما حاولت أن تساعده . . رفض بعينيه . . قالت وهى تتأوه تحته . . أحبك . . ألا تنتظر حتى أدخل الحمام . .

قال : وهو يخبطها على مؤخرتها بخفة : لا تتكلمى وأنت معى . .

عند دخول الحمام . . قال لها بلهجة الآمر . . لا تخرجى من غرفة النوم حتى لو سمعت أصواتا فى الصالة . . أغلقى عليك باب حجرة النوم حتى أدخل عليك . .

بعد الفجر . . سمعت عدة أصوات تتكلم فى الصالة وهم ينقلون الأشياء حتى لا يساومون . . ثم صوت عربة تتحرك فى بداية النهار . .

عندما دخل عليها وجدها عارية منكمشة فى الفراش . . لم تجد شيئاً يسترها سوى لحاف قديم مهترىء . . قالت له : هل تخلصت من جميع الأشياء . .

قال : جميعها . . لقد بات المنزل ملكنا الآن . . تستطيعين الحركة فيه بسهولة ، إننى فى أشد الجوع . . فى الثلاجة زجاجة خمر وطبق به جبن وبسطرمة وزيتون وكل شىء تريدين . . حتى أنتهى من أخذ حمامى . .

قالت سلوان وهى تطعم عاطف : لم أنعم بليلة مثلها فى حياتى . . النهار طلع وبدأ البشر يدبون على الأرض . . وأسمع ضجيج الأولاد الصغار يذهبون إلى مدارسهم . . كم كنت أتمنى أن يكون لى طفل صغير يملأ على حياتى . .

* * *

(٦)

عند العصر . . استيقظ عاطف متعباً من تأثير الخمر غير المتعود عليه والمخدر الـذى كان يحمله فى جيبـه صانعـا منـه عدة سجائر محشوة . . فشم رائحة لحم يشوى وخضار يطهى . . وشعر بالدفء والحنان وهو يرى كل شىء فى البيت نظيفا ومرتبا . . بالرغم من فقر أثاثه الواضح ، كل شىء فى مكانه الصحيح . . حتى أدوات الحلاقة الخاصة به . .

قال لنفسه : أول مرة أشعر أننى رجل له امرأة تعتنى به . . وأشم رائحة طبيخ بيتى . . كما كانت تصنع أم وليم عليها رحمة الله . . فى بيتها لتطعمنى وتطعم أولادها . .

ولكنـه عنـدمـا خرج نصف عار إلى صالـة المنـزل . . سألهـا بخشونة : من أين أتيت بكل هذه الأشياء اللازمة لأكلة ساخنة . .

قالت سلوان : انزلقت من السرير عندما سمعت «شخيرك» . . وذهبت إلى « حارة برجوان » واشتريت كل ما يلزم من بصل وخضراوات ولحوم وجرائد . . وفواكه . . قال فى غضب : إنك بهذه الفعلة تفضحيننى عند صاحب البيت فهو يعرف أننى غريب عازب . . أستعد لاستلام الوظيفة الجديدة . .

قالت سلوان وهى تبتسم : لا تخف . . لقد قابلنى فى الصباح وهو يفتح دكانه وسألنى عمن أكون فقلت له بابتسامة : أخته التى جاءت تقف بجانب أخيها حتى يستلم عمله الجديد فى القاهرة . .

فى المساء . . أخذت تروى له حكاياتها التى بدأت فقط منذ خمس سنوات وهى تداعبه فى شعره الغزير . . تفرق الخيوط ثم تنكشها لتشكل عش عصفور . . ثم تعود فتجمعها معا . .

عندما مات أبى ، تزوجت أمى من رجل آخر . . وتم توزيع الأولاد . . فكنت من نصيب خالتى التى تعيش ناحية القلعة فى منطقة قريبة من المقابر . . فى سبيل مساعدة نفسى . . عملت عند ترزى للسيدات قريب من سوق السلاح . . وكنت أيضاً فى نفس الوقت مخطوبة لابن خالة أخرى . .

وفى أحد أيام السهر التى كان صاحب المحل يدفع فيها الضعف ، وذلك إذا كان فى يده جهاز عروس ، سبع فساتين وعشرة قمصان نوم غير الأرواب . . عروس بنت ناس . .

فى هذه الليلة تركت المحل بعد العاشرة ، واتجهت بمفردى إلى سوق السلاح . . كان يوما عاصفا متربا . . السماء ملبدة بالغيوم . .

أجد أيام يناير . . ولا تاكسى يريد أن يقف فى هذا الجو المنذر بمطر غزير . . فوجئت بعربة تسد على الحارة الضيقة . . ينزل منها شاب يسألنى أين كنت يا بنت الكلب حتى هذه الساعة . . وارتبكت وقلت الحقيقة وطلبت أن يعود بى إلى محل الترزى . . ويوصلنى إلى خالتى . .

وفوجئت أن العربة بها شابان آخران . . ولم يذهبوا بى إلى خالتى أو إلى محل الترزى وإنما لشقة أحدهم فى قرافة المجاورين . . وطبعاً تعرف الباقى . . ثلاثة أيام يتركوننى صباحا . . ثم يتناوبون على ليلا . . وقد أضيف إليهم آخر كما عرفت بعد ذلك أنه تاجر مخدرات له سطوة فى منطقة القلعة وله أراض واسعة ناحية أبوعمار قرية المشمش . .

ووقع فى يدى ولما خرجت من السجن الإجبارى . . لم يصدقنى أحد . . ولم يرد أحد ، وفى القسم القريب حكيت للصول النوبتجى الحكاية . . فبصق فى وجهى . . ورفض أن يحرر لى محضرا . . فقط ألقانى وسط العاهرات المريضات فى الحجز لمدة أسبوع حتى أستعيدنشاطى وأعود إلى عقلى . . .

وخرجت وأنا على صلة بهؤلاء النسوة . . أعمل معهن . . ليس لى سواهن . . حتى عرفنى فى القهوة التى قابلتنى فيها صاحب ورشة الصاغة فؤاد نجم . . ثم ألقانى إلى الشارع مرة أخرى بعد ثلاث سنوات خدمة وعشق . . من غير أن يدفع لى حسابى . . أو أجرتى عن الأيام الخالية . .

قالت سلوان وهى تبعد يدها عن جسد عاطف : لماذا لا تتكلم . . ألا تصدقنى . .

قال عاطف : أصدقك . . فى الكثير من أقوالك . . أما فؤاد نجم . . فاعتبرى ورشته ملكك منذ الآن . . وسيدفع لك ثلاثة أضعاف الشهور التى قضيتها بجواره تدللينه مثلما تدلليني الآن . . أما تاجر المخدرات . . هل تعرفين اسمه أو عنوانه . .

قالت سلوان : هل ستسرقه هو الآخر . . إنه يسكن الآن فى شارع الحجاز بمصر الجديدة وله أراض واسعة ناحية أبو عمار قرب بنها . .

قال عاطف : فقط أريد أن أعرف اسمه . .

قالت سلوان محذرة : كما أعرف فهو يدعى « هارون الوزير » . .

قال عاطف : لا أصدقك . . ولا أصدق أنك كنت بكراً . . عندما سقط عليك هؤلاء الشبان ، ولكننى أيضاً أحب بعض كذبك . . الكاذبات أجمل من الحمقاوات .

وهنا ارتمت على جسده تفتش بأصابعها عن مسام جسده . . لعلها تشفى فيها غليلها . . وهنا سقط عليها مثل مارد . . يقتلها . . يقبلها بعنف . حتى صاحت فى توجع : من أين تعلمت كل هذا التوحش . . ؟

قال وهو لا يبتعد عنها : من الزمن الردىء . .

عندما عادت سلوان من الأسواق . . محملة بكل ما تتمنى أن يذوقـه عاطف من يدها فوجئت بصاحب البيت يقول لها : عاطف اضطر أن يذهب فى عمل عاجل إلى المنصورة وقد يأتى بعد أسبوع والبيت تحت أمرك حتى نهاية الشهر . . أى بعد يومين . .

* * *

(٧)

كادت الدموع تفر من عينيها وهى تنظر إلى ما تحمله من فاكهة وخضار وأوزة صاحية وكادت تقول وأين سألقاه ثانية . . أسبوع واحد ويذهب عنى إلى الأبد . . نظرت إلى صاحب البيت ونظر إليها نظرة ذات معنى وهو يدس فى أصابعها مبلغاً من المال تركه عاطف لها . . ثم سمعته يقول لأحد عماله : سأغلق المحل مبكراً . . الجو خماسينى مترب والإنسان فى هذا العمر يحتاج لأكلة طيبة دسمة وشوربة دافئة ترم العظام . .

ظهر عاطف ثانية بعد شهرين أمام قهوة النعيم . . ليجد سلوان تجلس فى كرسيها أمام محل الكشرى المغلق . . بجانبها شابان يساومانها على أجر الليلة . . ولكن ما أن رأت عاطف حتى تهلل وجهها . . وزعقت على النادل ليأخذ الحساب . . رافضة أن يدفع لها أحد شيئاً . . لقد عاد حبيب القلب . . قالت لعاطف . . قم بنا عن هذا المكان الذى يرتاده ساقطو الحيل . .

قال عاطف : اجلسى .. لا تتسرعى .. إننى أنتظر صحبة ..

قالت سلوان : إذا لم تأت فى طلبى ..

قال عاطف : كان يمكننى أن أقابل الصحبة فى أى قهوة أخرى أقل فسادا وأقل شبهة من هذه القهوة ..

قالت سلوان : لقد قلقت عليك ..

قال عاطف : كان هناك أمر يجب أن أسويه فى المنصورة .. ولقد سويته تماماً ..

قالت سلوان : هل قتلت أحدا هناك ..

قال عاطف : لم أقتل أحدا حتى الآن .. ولكن لماذا تسألين هذا السؤال ..

قالت سلوان : إذاً يجب أن نترك هذا المكان ..

قال عاطف : لا تخافى .. كل ناضورجية القسم القريب فى جيبى ..

قالت سلوان : لقد رأيت فى الجرائد صورتك .. وقالوا عنك قاتل أثيم .. وأخرجت من جيبها صورته فى صفحة الحوادث ..

قال عاطف : (مبتسما) : لقد سمعت هذه الحكاية وأنا مازلت فى بنها واستطعت الهرب متنكراً .. صاحب البيت ضابط البوليس توفى بالسكتة القلبية .. وليس عن طريقى كما تقول زوجته اللئيمة ..

قالت سلوان : لقد حكموا عليك بالإعدام قبل الكشف على الرجل . .

قال عاطف : لحظة . . توارى . . أجلسى بعيداً عنى . . لقد جاءت الصحبة . . سنلتقى عند الفجر فى محطة مصر . .

قالت سلوان : ولكن ماذا ستفعل فى هذه الساعة . .

قال عاطف : سنسرق محل فؤاد نجم . .

كادت سلوان تشهق من الخوف . . وهى تقول : إنه أهم محل للذهب فى الحى . .

قال عاطف : لا تخافى . . أمناء الشرطة والصحبة معهم كل ما يلزم . . من الغد سنسافر إلى الإسكندرية . . سنبيت الليلة عند أحد أصدقائنا فى أول شبرا . .

. . . .

قال عاطف محذرا : لا تكثرى من الأسئلة . . إنى أكره المرأة الثرثارة . . هل تفهمين ؟ تحركى الآن إلى أحد المقاهى الساهرة وموعدنا عند الفجر .

وتحركت سلوان . .

وجمع من الصحبة يتوافد . . لم تميز عددهم أربعة أو خمسة . .

* * *

عنـد الفجـر قابلهـا عاطف وأخذها من يدها . . قالت : إلى أين . . ؟ إلى أول قطار يذهب الاسكنـدرية . . لن نبيت الليلة فى منــزل صديقنــا لأن جميع المسروقـات عنـده وسيتم توزيعهـا على الأقاليم . . قبل أن يطلع النهار . .

قالت سلوان : وماذا سنفعل فى الاسكندرية ؟

قال عاطف : سنحيا اللحظات التى لم نعشها من قبل . . هل تكرهين ذلك أم تفضلين العجوز القليل الحيلة . . القليل المال . . وأخـرج من جيبـه حلية تساوى الكثير . . شهقت عندما رأتها وهى تقول : هل هى لى ؟

قال عاطف : لم أنسك : لم أنسك ولو لحظة واحدة . . يا حبيبتى ولم أعرف دفـء امرأة غيرك . .

قالت سلوان : إنك تكذب . .

قال عاطف : الكذب أحيانا أحلى من الحقيقة . .

ظهرت صحف الصباح وهى تشير إلى المجرم الذى أثار البوليس والـرأى العام والذى له جرائم مماثلة فى السرقة فى أسيوط والمنصورة وأخـيرا فى حى الجـمالية . . ولمن ينسـوا أيضـاً أنه هو المجرم القاتل للمـزارع الثـرى فى بنها . . وأنه دائم الهرب من البوليس فى الوقت المناسب . . ولم ينسوا أنه هرب يوما فى بداية عمله فى أسيوط من قاعة المحكمة بمعاونة أصدقاء مؤيدين له . . وأن الأحكام المدان بها تتراوح بين أربعـين وخمسـين سنـة سجن أشغال شاقة مؤبدة . . غير تهمة الإعدام لقتله ذلك المزارع الطيب .

(٨)

فى منزل من دور واحد فى أبو قير . . قضى عاطف وسلوان أحلى لحظات حياتهما معا . . يستحوذ على عقل عاطف فى المدة الأخيرة بعد إحساسه بالحصار من اتجاه البوليس . . ويعد نشر أكثر من صورة له طبيعيا أو متنكرا . . . فى الجرائد القومية . .

ولما قالت له سلوان : لماذا لا تتزوجنى يا عاطف . . ؟

قال عاطف : لأننى لا أتزوج من الساقطات . .

قالت سلوان : هل تشك فى حبى . .

قال عاطف : إننى أشك فى كل النساء . . وخاصة اللاتى جربن أكثر من رجل . . هل تعيشين اللحظة معى . . أو تفضلين الهروب منى . .

قالت سلوان فى حزن : وأين أذهب . . ليس لى أحد غيرك . .

قال عاطف : ولن تجدى أحدا يعطيك مقابل أيامك معى . .

قالت سلوان : أنت قاسٍ علىَّ . . إننى أحبك ولن أهجرك أبدا . .

قال عاطف : وصاحب البيت . . لم يمارس معك الحب بعد أن تركت البيت فورا . .

قالت سلوان فى غضب : كاذب . . وحقير ولئيم . . يجب أن تقتله فى يوم لقاء كذبه . .

قال عاطف : لن أقتله أبدا . . لأنه هو الذى يشترى منى كل المسروقات ويتدارى بذقنه وسبحته ومودته لجميع أهل الحى . .

قالت سلوان : إذن هى مسألة عمل فقط لا غير . . هل هذه هى حياتك . . ؟

قال عاطف : بالتأكيد . . هذه هى الحياة . . . إذا كنت تتخيلينها غير ذلك فأنت واهمة حقيرة . .

قالت سلوان : لقد مللت عشرتك . .

قال عاطف : أمامك الباب . . لن أمنعك ولكننى أحذرك أن تكونى شاهدة ضدى فى يوم من الأيام . . وإلا لدغلك العقرب . . كما لدغ الذين أساءوا إليه من قبل .

فى المساء . . عند عودة عاطف من إحدى مغامراته المحببة إليه فى بيوت الموسرين . . وجد سلوان أخذت كل ملابسها ومصاغها

المهدى إليها منه . . بل أيضاً أخذت كل ما يملك من نقود يضعها فى أحد الأدراج المغلقة . . كما أخذت كل المخدر الفاخر الذى اشتراه من أجل مزاجه والذى لا يستطيع الحياة بدونه . .

وكاد يجن فى وحدته . . وهو لا يستطيع ترك المنزل المكون من حجرتين . . فالبوليس يتعقبه ويراقب كل شوارع وحوارى المكان ، لا يستطيع الخروج الآن إلا متنكرا ، وشعر بالحصار يخنقه . . أنه يحتاجها الآن . . أكثر من أى وقت . . يحتاج إلى ونيس يشترى له متطلباته من المخدر . . والغذاء . . ويستكشف له الطريق القريب والبعيد . . يشترى له ملابس جديدة من أجل التنكر . . يقترب بجسده منه حتى لا يشعر بالوحشة . . إنه يشعر أن كل الحبال تلتف حول رقبته . . وخبط رأسه فى الجدار أكثر من مرة لعله يفيق من إلحاح المخدر والحصار . . ولم يسمع سوى أصوات موج البحر ترد عليه من بعيد . .

أخذ يدمى جسده بأظافره الطويلة . . ولم يسمع إلا نقيق بوم كانت تطارده دوما فى نهاية الليل . .

* * *

(٩)

بعد عشرة شهور والبوليس يبحث عن عاطف . . وصوره تنشر فى كل الجرائد . . حتى أصبح أسطورة عند الشباب الجامعى أو الحرفى المتعطل بالساعات على المقاهى بدون عمل . . شارد ضائع يبحث عن مستقر أو قرار . . سمعوا طلقات رصاص فى قهوة ولى النعيم فى الحسين . . سلوان المنحرفة قتلت من مكان مرتفع . . والفاعل معروف .

وقد سبق أمر القتل . . القبض على عم زعفران صاحب دكان الفول وصاحب بيت الخرنفش بتهمة مساعدة المجرم عاطف المنواتى . .

بحث البوليس طويلا . . فى الأزقة والحوارى . . وفى المنازل القريبة حيث كانت سلوان تعمل كمرشدة مضطرة لقسم الجمالية بجانب عملها الليلى . . وحوصرت المنطقة تماماً وأصبح خروج عاطف من المنطقة من المستحيلات . .

وظل الهارب سعيدا بهروبه . . ومعه تهمة بقتل اثنين . . برىء من إحداهما ، والبوليس مازال يبحث والجرائد تنتشر بالتفاصيل . . وكثــرت السرقـات فى أنحـاء متفـرقـة من العـاصمـة وفى عواصم المحافظات ، وكان الجميع يعرف طريقة عاطف . .

ولكنه دوما كان يذوب كفص ملح فى محيط . . وبالتدريج . . بدأ الناس يبحثون عن حديث آخر . .

* * *

ولكنه فى يوم غريب . . أو ليلة غريبة . . والفجر على الأبواب اكتشفت فى حمام الناصر . . جثة شاب فى الحادية والثلاثين من عمره ولم يتعرف عليه البوليس . . عرفوا بعد ساعات أنه عاطف المنواتى . . الذى زاد الحصار عليه . . فلم يفارق المنطقة من يوم قتل سلوان . . وأنـه فى تلك الليلة أخذ جرعة قوية من الهيروين . . ومن ثم دخل الحمام مختبئا حتى الصباح . . وقيل أنه قتل فى الحمام . . وقيل أنه مات غريقاً فى مغطس الأمير . .

وقفل دوسيه عاطف . . ورفض أهله . . أبناء زوجة أبيه استلام الجثة . . لترقد فى مدافن الصدقات . .

هنـا تنفس البـوليس والسلطة الصعـداء . . ليظهـر مئات من عاطف المنـواتى ولكنهم أقـل ذكـاء وأقـل توحشاً وأقـل تدمـيراً لأنفسهم . .

* * *

مؤلفات الأستاذ اسماعيل ولى الدين

حمام الملاطيلى	الطبعة الأولى ١٩٧١	الطبعة الخامسة ١٩٨٤
الأقمـــر	الطبعة الأولى ١٩٧٢	الطبعة الخامسة ١٩٨٤
حمص أخضر	الطبعة الأولى ١٩٧٣	الطبعة الخامسة ١٩٨٥
تجربة حب	الطبعة الأولى ١٩٧٤	الطبعة الرابعة ١٩٨٥
حب تحت الحراسة	الطبعة الأولى ١٩٧٥	الطبعة الرابعة ١٩٨٦
السـلخانة	الطبعة الأولى ١٩٧٦	الطبعة الرابعة ١٩٨٦
دار التفاح	الطبعة الأولى ١٩٧٦	الطبعة الثالثة ١٩٨٥
طائر اسمه الحب	الطبعة الأولى ١٩٧٦	الطبعة الثالثة ١٩٨٢
الموت خلف الفندق	الطبعة الأولى ١٩٧٨	الطبعة الثالثة ١٩٨٦
حب تحت الأشجار	الطبعة الأولى ١٩٧٨	الطبعة الثانية ١٩٨٩
رحلة الشقاء والحب	الطبعة الأولى ١٩٧٩	الطبعة الثانية ١٩٨٤
الباطنية	الطبعة الأولى ١٩٨٠	الطبعة الثانية ١٩٨٤
العاشقان	الطبعة الأولى ١٩٨٠	الطبعة الثانية ١٩٨٤
يوم للحياة . . ويوم للموت	الطبعة الأولى ١٩٩٠	
الرجل والمرأة والجنون	الطبعة الأولى ١٩٩٠	
منزل العائلة المسمومة	الطبعة الأولى ١٩٨٠	الطبعة الثانية ١٩٨٤
احزان سمارة	الطبعة الأولى ١٩٨٠	الطبعة الثانية ١٩٨٩
زقاق العسكر	الطبعة الأولى ١٩٨٠	الطبعة الثانية ١٩٨٩

الشارع الأزرق	الطبعة الأولى ١٩٨١	الطبعة الثانية ١٩٨٩
النجوم تبكي أيضا	الطبعة الأولى ١٩٨٢	الطبعة الثانية ١٩٨٩
درب الهوى	الطبعة الأولى ١٩٨٢	الطبعة الثانية ١٩٨٩
غرفة فوق السطح	الطبعة الأولى ١٩٨٣	
عشاق الدموع	الطبعة الأولى ١٩٨٤	
فتاة برجوان	الطبعة الأولى ١٩٨٥	
درب الرهبة	الطبعة الأولى ١٩٨٦	
القتل وسط النهار	الطبعة الأولى ١٩٨٧	
وادى السلطان	الطبعة الأولى ١٩٨٨	

رقم الإيداع ١٥٨٨
I.S.B.N - 977 - 215 - 620 - 4

دار قبـــاء للطباعة

بالمنطقة الصناعية C 1 أمـام المجاورة السـابعة

بمدينة العاشر من رمضان ـ ت : ٣٦٢٧٢٧

الناشر
مكتبة غريب
٣،١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

الثمن ٢٥٠ قرشا

دار قبـاء للطباعة
بالمنطقة الصناعية C1 أمام المجاورة السابعة
بمدينة العاشر من رمضان ـ ت : ٣٦٢٧٢٧